الأزهر

حوار مع صديقي الملحد

د. مصطفى محمود

دراسة وتقديم وتعليق: أ.د. محمد عمارة


إهداء ٢٠١٥
مجلة الأزهر
جمهورية مصر العربية

د. مصطفى محمود

حوار مع صديقى الملحد

دراسة وتقديم وتعليق

أ. د. محمد عمارة

-١-

بطاقة حياة
دكتور مصطفى محمود
(١٣٤٠ ـ ١٤٣٠ هـ ـ ١٩٢١- ٢٠٠٩م)

- هو مصطفى كمال محمود حسين.
- ولد بمحافظة المنوفية ـ بدلتا النيل ـ فى ٢٦ ربيع ثانى سنة ١٣٤٠ هـ - ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٢١ م..
- حصل على بكالوريوس الطب من كلية طب القصر العينى سنة ١٣٧١ هـ سنة ١٩٥٢ م.
- وعقب تخرجه عمل طبيبا بوزارة الصحة من سنة ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٣ م حتى سنة ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م.. حيث استقال وتفرغ للكتابة الصحفية والفكرية والأدبية.
- عمل محررا بمجلة «روز اليوسف» أكثر من عشرين عاما ـ من سنة ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠ م حتى سنة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م ـ عندما بلغ سن المعاش، فتفرغ للعمل الفكرى والأدبى.
- ولقد تميز فى حياته الفكرية ـ التى انعكست فى إبداعاته ـ بمجيئها ثمرة لتجربة ذاتية خصبة، وسياحة فكرية واسعة، فلقد ارتحل ـ فى الإيمان ـ من الشك إلى اليقين.. وكان لمعاشرته ومعايشته ـ فى الوسط الفكرى والثقافى والصحفى

بالماركسيين والعلمانيين والليبراليين والوجوديين.. ولنظرته النقدية، وفطرته السوية، الأثر الكبير فى معاناته وفى تطوره الفكرى.

فلقد كان ـ كما يقول ـ : «إنسانا عقلانيا ماديا بتأثير دراساته العلمية، لا يؤمن إلا بما يلمس ويرى ويسمع، ثم اكتشف أن العلم عاجز عن أن يجيب عن أسئلته، وأن الإنسان ليس مجرد لحم وعضلات وأحشاء، ولا مجرد مركبات كيميائية من نحاس وحديد وكبريت، ولا مجرد باحث عن الطعام، ولا هو شهوة جنسية، ولا يمكن تفسيره بهذه المسائل، فالإنسان مثلاً يصيبه الجوع فيتغلب عليه بالصيام، ومعنى هذا أنه يتجاوز حاجاته المادية ومطالبه الجسدية، فهو الذى يتحكم فى جسمه، وليس جسمه الذى يتحكم فيه، وإذن فهو أسمى من كل حاجاته».

وهكذا رأى الإنسان ـ فى صورته الإسلامية ـ وعلى العكس من صورته فى المذاهب المادية والعدمية ـ رآه مجتمع الموجودات.. رآه الجرم الصغير الذى أنطوى فيه العالم الأكبر.. رآه خليفة الله فى أرضه.. ورأى فى إبداعاته تجليات أسماء الله الحسنى فى الخليقة..

وكما أن هذا الإنسان هو صفوة الموجودات، فإن الأنبياء هم صفوة الإنسانية.. وصفوة هؤلاء الأنبياء هو خاتمهم: الإنسان الكامل، إمام أولى العزم من الرسل، صاحب الرسالة الجامعة

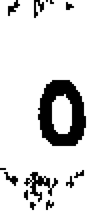


والخاتمة والخالدة.. المراد من جنس الإنسان على الإطلاق ـ محمد بن عبدالله ﷺ ...

• ولقد كانت حياة مصطفى محمود واجتهاداته وإبداعاته ـ منذ نضجه الفكرى تجسيدا للوسطية الإسلامية الجامعة.. فلقد جمع بين قلب الصوفى وعقل الفيلسوف، وتجربة العالم، وعين الفنان، وأحاسيس العاشق لكل ما فى الوجود من جمال وجلال وكمال «كما تجلت وسطيته الإسلامية فى رفضه الفلسفة الغربية التى انشطرت ـ بالغلو ـ بين «المادية» و«المثالية».

وفيه تعانق الذكاء مع بداهة الفطرة، فقرأ بهما آيات الله فى الأنفس والآفاق.. وفقه بهما كتاب الله المنظور وكتابه المسطور.. فجاءت قراءاته عذبة رقراقة، خالية من جفاف الجدل العقيم.. جاءت صفحة مشرقة من صفحات العلم الممتع والدين المقنع.. حتى لكأنما قد تحقق فى نهجه هذا ما أراده إمام دار الهجرة مالك بن أنس [٩٣ ـ ١٧٩ هـ ٧١٢ ـ ٧٩٥ م] ـ رضي الله عنه ـ عندما قال: «إن علمنا هذا دين، وإن ديننا هذا علم، فانظروا عمن تأخذون دينكم».

• كذلك جمع مصطفى محمود ـ بالوسطية الإسلامية الجامعة ـ بين الحياء الشديد والأدب الجم، وبين الفروسية الفكرية التى لا تخشى فى الحق لومة لائم عندما تكون المواجهة مع



أعداء الله والأمة والإسلام ... رأيته يصفح الصفح الجميل أمام استفزاز وسوء أدب غُلاة العلمانيين.. ويوجع ـ بحد الكلمة ـ أعداء الإسلام.

• وكما كان مصطفى محمود فارسا فى مواجهة الشيوعية ... والصهيونية.. والمادية.. والزندقة.. والإلحاد.. والعنصرية الغربية ... والعلمانية الدهرية.. كان فارسا كذلك فى مواجهة الجمود والتقليد والتنطع فى ميدان الفكر الإسلامى ... لذلك عاداه عبيد التغريب ـ الذين رأوه شاهدًا منهم وعليهم، كشف عوراتهم الفكرية ... وعبيد الجمود والتقليد من أهل التفسير الحرفى والأجوف للنص الدينى الإسلامى.. وكان ـ كذلك ـ فارسا فى نقده للكهانة وولاية الفقيه الخمينية..

• كان مصطفى محمود صوفيا فيلسوفا ... ومع ذلك، رأيناه ـ من موقع العرفان الصوفى وبالبرهان العقلى، يخوض معارك العصر، ويبدع فى علوم العصر، حتى لكأنه تلميذ نجيب فى مدرسة حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م]، الذى واجه، من موقع الفيلسوف الصوفى، تحديات عصره، وأصبح ظاهرة فكرية جسدت علوم العصر الذى عاش فيه.

ولقد كان الكتاب والسنة الإطار الحاكم والعاصم لتصوف مصطفى محمود من عرفانية الغنوصية الباطنية ... فالتصوف

عنده هو القرب من صفات الجلال والجمال والكمال، ومن سيرة الإنسان الكامل.. البشر الذى يوحى إليه ... إنه التصوف الذى لا يفصل بين الحقيقة والشريعة ... وإنما يجاهد لفقه حقيقة الشريعة وتجسيد شريعة الحقيقة.

ولقد حاكى مصطفى محمود، فى بعض إشراقاته الصوفية، النفرى محمد بن عبد الجبار [٣٥٤ هـ ـ ٩٦٥ م]، فكتب فى مخاطباته يقول:

«قالت لى نفسى:

نارك وجنتك بين جنبيك!.

نارك وجنتك فيما تختار، وما تعجل إليه من أقوال وأفعال، وما تبادر إليه من عمل، وما تمتد إليه يدك من حلال وحرام.

إن يدك هى التى تحفر بها قبرك، وتصنع بها مصيرك، ولسانك هو الذى يهوى بك إلى الهاوية أو يصعد بك إلى أعلى عليين.

أنت ما تقول وأنت ما تفعل.

وانظر ماذا تفعل تعلم مسكنك، وتشهد قيامتك قبل قيامك، وتعلم ساعتك قبل ساعتك ..».

وبذلك امتاز هذا التصوف عن «رسوم الطرقية» أهل «الثريد والهُبر».. كما تميزت هذه الفلسفة عن جدل سكان الأبراج العاجية وجفاف مقولاتهم..



● وحتى ما أُخذ على بعض اجتهادات مصطفى محمود، فإن المنصفين لا ينفون عنه حسن النية وسلامة القصد.. وإسلامنا هو الذى يعلمنا أن الأعمال بالنيات.. وأن رب هذا الدين قد كتب أجرا للذين يجتهدون فلا يحالفهم الصواب.. ولهذا كان مصطفى محمود رجلاً أوَّابًا عندما يكتشف ـ أو يكشف له أحد ـ جديدا يصوب ما قدم من آراء.. ولقد كانت لى معه تجربة شاهدة على ذلك إبان المعركة الفكرية التى ثارت حول ما كتبه عن الشفاعة..

● كذلك كان مصطفى محمود عارفا بأقدار الرِجال ومعادن العلماء والدعاة.. ترى ذلك فى حبه لشيخنا محمد الغزالى [١٣٣٥ ـ ١٤١٦ هـ ١٩١٧ ـ ١٩٩٦م].. وفى وصفه للشيخ الشعراوى [١٣٢٩ ـ ١٤١٩هـ ١٩١١ ـ ١٩٩٨م] «بمولانا العبد الصالح»..

● وإذا كان مصطفى محمود قد ترك آثارا فكرية زاد عددها على الثمانين ـ وذلك غير المقالات الصحفية ـ فلقد قدم للمشاهدين رائعته: برنامج «العلم والإيمان»، الذى اجتذب جمهورا واسعا من المشاهدين على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام ومواطن المسلمين خارج ديار الإسلام.

كما كانت المؤسسة الإسلامية الكبرى التى أقامها وأشرف عليها فى قلب القاهرة ـ المسجد والمشفى وقاعة المحاضرات



والمدارس وأبـواب الإعانة والرعاية والإغاثة ـ منارة جسدت المنهج الإصلاحي الذى عاش له مصطفى محمود..

● لقـد رحل مصطفى محمود عن الدنيا فى ١٢ ذى القعدة سنة ١٤٣٠ هـ - ٣١ أكتوبر سنة ٢٠٠٩م ـ لكن مؤسسته الخيرية لا تزال مصدرا للعطاء.. كما أن آثاره الفكرية التى يقبل عليها القراء ـ بينما كتب ناقديه قد دخلت معهم إلى القبور ـ تقول:

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (الرعد: ١٧)

لقد ترك مصطفى محمود لأمته زادا فكريا تمثل فى هذه الكتب:

١- إسرائيل البداية والنهاية ٢- الذين ضحكوا حتى البكاء ٣- الطريق إلى جهنم ٤- ألعاب السيرك السياسى ٥- الغد المشتعل ٦- الإسلام فى خندق ٧- الإسلام السياسى ٨- عالم الأسـرار ٩- عظماء الدنيا وعظماء الآخرة ١٠- على حافة الانتحار ١١- قراءة المستقبل ١٢- كلمة السر ١٣- زيارة للجنة والنار ١٤- المؤامرة الكبرى ١٥- علم نفس قرآنى جديد ١٦- ماذا وراء بوابة الموت ١٧- الشفاعة ١٨- سواح فى دنيا الله ١٩- على خط النار ٢٠- حوار مع صديقى الملحد ٢١- الله ٢٢- إسرائيل النازية ولغة المحرقة ٢٣- رحلتى من الشك إلى الإيمان ٢٤- على حافة الزلزال ٢٥- القرآن:

محاولة لفهم عصرى ٢٦- رأيت الله ٢٧- تأملات فى دنيا الله ٢٨- السر الأعظم ٢٩- عصر القرود ٣٠- فى الحب والحياة ٣١- الأحلام ٣٢- الشيطان يحكم ٣٣- محمد ﷺ ٣٤- لغز الحياة ٣٥- لغز الموت ٣٦- العنكبوت ٣٧- الوجود والعدم ٣٨- الروح والجسد ٣٩- الشيطان يسكن فى بيتنا ٤٠- شلة الأنس ٤١- حكايات مسافر ٤٢- المسيخ الدجال ٤٣- جهنم الصغرى ٤٤- نقطة غليان ٤٥- اعترافات عاشق ٤٦- أكل عيش ٤٧- عنبر ٧ ٤٨- رائحة الدم ٤٩- الزلزال ٥٠- إبليس ٥١- أينشتين والنسبية ٥٢- يوميات نصف الليل ٥٣- المستحيل ٥٤- الأفيون ٥٥- الخروج من التابوت ٥٦- رجل تحت الصفر ٥٧- الإسكندر الأكبر ٥٨- الإنسان والظل ٥٩- غوما ٦٠- الغابة ٦١- مغامرات فى الصحراء ٦٢- اعترفولى ٦٣- ٥٥ مشكلة حب ٦٤- الطريق إلى الكعبة ٦٥- التوراة ٦٦- الماركسية والإسلام ٦٧- الطوفان ٦٨- من أسرار القرآن ٦٩- لماذا رفضت الماركسية ٧٠- القرآن كائن حى ٧١- أكذوبة اليسار الإسلامى ٧٢- نار تحت الرماد ٧٣- أناشيد الإثم والبراءة ٧٤- من أمريكا إلى الشاطئ الآخر ٧٥- أيها السادة اخلعوا الأقنعة ٧٦- الإسلام ما هو ٧٧- وبدأ العد التنازلى ٧٨- حقيقة البهائية ٧٩- السؤال الحائر ٨٠- سقوط اليسار ٨١- هل هو عصر الجنون ٨٢- الله والإنسان.

***



رحم الله الدكتور مصطفى محمود.. وضاعف له الحسنات لقاء حسن نواياه.. وما أبدع عقله من اجتهادات.. وما قدمت يداه من خير لأمة الإسلام[1]

(١) انظر فى سيرة الدكتور مصطفى محمود:
(أ) [الموسوعة القومية للشخصيات البارزة] هيئة الاستعلامات المصرية جـ ٢ ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٩٢م.
(ب) [موسوعة الفلسفة والفلاسفة] للدكتور عبد المنعم الحفنى جـ ٢ - الطبعة الثانية ـ مكتبة مدبولى القاهرة سنة ١٩٩٩م.
(جـ) [الموسوعة الصوفية] للدكتور عبد المنعم الحفنى الطبعة الخامسة ـ مكتبة مدبولى القاهرة سنة ٢٠٠٦م.



-٢-

بين يدى هذا الكتاب

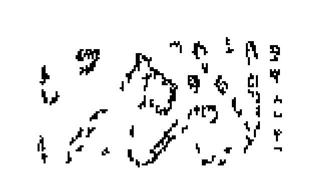
لا نبالغ إذا قلنا إن هذا الكتاب هو من أمتع وأجمل وأدق ما كتب فى موضوعه، وإن قارئه عندما يقترب من ختامه يتمنى أن لا يحدث هذا الختام!

لذلك، كان اختيار إشارات من هذا الكتاب للتقديم بها بين يديه أمرا بالغ الصعوبة، إذ إن معظم ما فيه يغرى بأن يكون ضمن هذه الإشارات!

وإذا كان لا بد من الاختيار، فإن فى هذا الكتاب:

- حديث عن الدين يقول: «إن الدين ليس له إلّا معنى واحد هو معرفة الإله. أن تعرف إلهك حق المعرفة، ويكون بينك وبين هذا الإله سلوك ومعاملة، أن تعرف إلهك عظيما جليلا قريبا مجيبا يسمع ويرى فتدعوه راكعا ساجدا خاشعا خشوع العبد للرب».

وإن شهادة لا إله إلا الله هى لمن يعمل بها، وليست لمن يشقشق بها لسانه. لا إله إلا الله منهج عمل وخطة حياة وليست مجرد حروف، إننا حينما نقول لا إله إلا الله نعنى أنه لا معبود إلا الله، وبين (لا) و(إلا) بين النفى والإثبات فى العبارة، بين هاتين الدفتين تقع العقيدة كلها «لا» النافية تنفى الألوهية عن



كل شيء، ومعنى كلمة «إله» أى «فاعل»، والفاعل بحق عندنا هو الله، أما كل هذه الأشياء فوسائط وأسباب، «إلا» واحد نستثنيه ونثبت له تلك الفاعلية والقدرة هو الله، ومعنى «لا إله إلا الله» أنه لا حسيب ولا رقيب إلا الله، ومعنى ذلك أن «لا إله إلا الله» عهد ودستور ومنهج حياة، والمقصود بها العمل بها، فمن عمل بها كانت له طلسما بالفعل يفتح له كل الأبواب العصية، وكانت نجاة في الدنيا والآخرة، ومدخلا إلى الجنة.

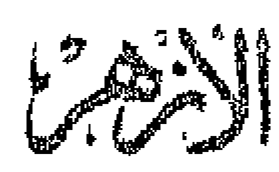
- ووجود الله ليس في حاجة إلى برهان «فالله هو الذى يبرهن على الوجود، ولا يصح أن نتخذ من الوجود برهانا على الله، تماما كما نقول إن النور يبرهن على النهار، ونعكس الآية لو قلنا إن النهار يبرهن على النور، فالله هو الدليل الذى لا يحتاج إلى دليل».
- «والخالق واحد، لأن الكون كله مبنى من خامة واحدة، وبخطة واحدة».
- والعبودية لله هى قمة التحرر والحرية «فنحن لا نعبد الله بأمر تكليف، ولكننا نعبده لأننا عرفنا جماله وجلاله، ونحن لا نجد في عبادته ذلا بل تحررا وكرامة، تحررا من كل عبوديات الدنيا، تحررا من الشهوات والغرائز والأطماع والمال. ونحن نخاف الله فلا نعود نخاف أحدا بعده، ولا نعود نعبأ بأحد، خوف الله شجاعة، وعبادته حرية، والذل له كرامة، ومعرفته يقين، وتلك هى العبادة.



نحن الذين نجنى أرباحها ومسراتها ، أما الله فهو الغنى عن كل شىء ، إنما خلقنا الله ليعطينا لا ليأخذ منا ، خلقنا ليخلع علينا من كمالاته ، فهو السميع البصير ، وقد أعطانا سمعا وبصرا ، وهو العليم الخبير ، وقد أعطانا العقل لنتزود من علمه ، والحواس لنتزود من خبرته ، وهو يقول لعبده فى الحديث القدسى : «عبدي ، أطعنى أجعلك عبدا ربانيا تقول للشىء كن فيكون» .

العبودية لله إذن هى عكس العبودية فى مفهومنا فالعبودية فى مفهومنا أن يأخذ السيد خير العبد ، أما العبودية لله فهى على العكس ، أن يعطي السيد عبده ما لا حدود له من النعم ، ويخلع عليه ما لا نهاية له من الكمالات ، فحينما يقول الله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات : ٥٦) فمعناها الباطن : ما خلقت الجن والإنس إلا لأعطيهم وأمنحهم حبا وخيرا ، وكرامة وعزة ، وأخلع عليهم ثوب التشريف والخلافة» .

- وليس فى موقف الإسلام من الرق ما ينقض هذا التحرير الإسلامى للإنسان ، فلقد جاء الإسلام «والاسترقاق حقيقة ثابتة ، وكانت الأديان السابقة توصى بولاء العبد لسيده ، فنزل القرآن ليكون أول كتاب سماوى يتكلم عن فك الرقاب وعتق الرقاب ، وكان الحل القرآنى هو قفل باب الرق ثم تصفية الموجود منه» .



- ويتحدث الدكتور مصطفى محمود عن تجربته مع القرآن الكريم، ومع سيرة رسول الله ﷺ فيقول: «لقد قرأت القرآن فكان له فى سمعى رنين وإيقاع ليس فى مألوف اللغة، وكان له فى عقلى انبهار، فهو يأتى بالكلمة الأخيرة فى كل ما يتعرض له من أمور السياسة والأخلاق والتشريع والكون والحياة والنفس والمجتمع برغم تقادم العهد على نزوله أكثر من ألف وأربعمائة سنة، وهو يوافق كل ما يستجد من علوم برغم أنه أتى على يد رجل بدوى أمى لا يقرأ ولا يكتب، وفى أزمنة متخلفة بعيدة عن نور الحضارات.

وقرأت سيرة هذا الرجل وما صنع، فقلت: بل هو نبى، ولا يمكن إلا أن يكون نبيا..

ولا يمكن لهذا الكون البديع إلا أن يكون صنع الله القدير الذى وصفه القرآن، ووصف أفعاله».

وعن الإشارات القرآنية الشاهدة على إعجازه العلمى يقول مصطفى محمود: «ما كان الفلك الحديث، ولا علوم الذرة ولا علوم البيولوجيا والتشريح معروفة حينما نزلت الآيات الكونية فى القرآن منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة لتتكلم عن السماوات والأرض والنجوم والكواكب، وخلق الجنين وتكوين الإنسان بما يتفق مع أحدث العلوم التى جاء بها عصرنا.



ولـم يتعرض القـرآن لهـذه الموضوعـات بتفصيـل الكتاب العلمـى المتخصـص، لأنـه جاء فـى المقام الأول كتـاب عقيدة ومنهـج تشـريع، ولو أنـه تعرض لتلـك الموضوعـات بتفصيل ووضـوح لصدم العـرب بما لا يفهمونه، ولهذا لجأ إلى أسـلوب الإشـارة واللمحة والومضة لتفسـرها علوم المسـتقبل وكشوفه بعد ذلك بمئات السـنين، وتظهر للنـاس جيلا بعد جيل كآيات ومعجـزات على صـدق نزول القرآن مـن الله الحق ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت : ٥٣)

لأنهم لم يكتفوا بشهادة الله على كتابه، فأصبح من الضرورى أن نـريهم ذلك بالآيات الكاشفة».

- ولقـد تميـز الإنسـان بالضمير الـذى «هو نور وضعـه الله فى الفطرة، ومؤشر ودليل وبوصلة نولد بها، تهدينا إلى الحقائق، وكل دور الاكتسـاب الاجتماعـى أنه يجلو مـرآة هذه البوصلة ويصقل زجاجها.

«استفت قلبك وإن أفتاك الناس».

لسـنا فى حاجة إلى كلية شـريعة لنعرف الخطأ من الصواب، والحـق مـن الباطل، والحرام من الحلال، فقـد وضع الله فى قلب كل منا كلية شريعة، وميزانا لا يخطئ، وكل ما نحن مطالبون به

أن نجلو نفوسنا من غواشى المادة ومن كثافة الشهوات، فنبصر ونرى ونعرف ونميز بدون عكاز «الخبرة الاجتماعية»، وذلك بنور الله الذى اسمه الضمير.

- وفى معنى القضاء والقدر والجبر والاختيار والتسيير والتخيير «فإن أفعال الإنسان معلومة عند الله فى كتابه، ولكنها ليست مقدرة على الإنسان بالإكراه.

ومجال المساءلة هو مجال التكليف، وأنت فى هذا المجال حر، والحرية الإنسانية لا تعلو على المشيئة الإلهية. إن الإنسان قد يفعل بحريته ما ينافى الرضا الإلهى، ولكنه لا يستطيع أن يفعل ما ينافى المشيئة، وهنا وجه آخر من وجوه نسبية الحرية الإنسانية، إن حرياتنا كانت عين أمره ومشيئته وحكمه.

والقضاء والقدر لا يصح أن يفهم على أنه إكراه للناس على غير طبائعهم، وإنما على العكس، الله يقضى على كل إنسان من جنس نيته، ويشاء له من جنس مشيئته، ويريد له من جنس إرادته، فتسيير الله هو عين تخيير العبد، لأن الله يسير كل امرئ على هوى قلبه وعلى مقتضى نياته، الله يسيرنا إلى ما اخترناه بقلوبنا ونياتنا، فلا ظلم ولا إكراه ولا جبر، ولا قهر لنا على غير طبائعنا ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ (الليل: ٥-١٠)

لقد أرادنا الله أحرارا، والحرية اقتضت الخطأ، ولا معنى للحرية دون أن يكون لنا حق التجربة والخطأ والصواب، والاختيار بين المعصية والطاعة.

إن التسيير الإلهى هو عين التخيير، لأن الله يختار للعبد من جنس نيته وقلبه، ومعنى ذلك أنه يريد للعبد نفس ما أراد العبد لنفسه بنية واختيار قلبه، أى أن العبد يسير إلى ما اختار، ومعنى ذلك أنه لا إكراه، وأنه لا ثنائية ولا تناقض، وأن التسيير هو عين التخيير».

- والله - سبحانه وتعالى - قد سمح بوجود الشر - لحكمة - لكنه لم يأمر به، فالله كله رحمة وكله خير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾

(الأعراف: ٢٨ - ٢٩)

والشر فى الكون كالظل فى الصورة، إذا اقتربت منه خيل إليك أنه عيب ونقص فى الصورة، ولكن إذا ابتعدت ونظرت إلى الصورة ككل نظرة شاملة، اكتشفت أنه ضرورى لا غنى عنه، وأنه يؤدى وظيفة جمالية فى البناء العام للصورة.

وهل كان يمكن أن نعرف الصحة لولا المرض، إن الصحة تظل تاجا على رءوسنا لا نراه ولا نعرفه إلا حينما نمرض، وبالمثل ما كان ممكنا أن نعرف الجمال لولا القبح، ولا الوضع الطبيعى

لولا الوضع الشاذ، ولهذا يقول الفيلسوف أبو حامد الغزالى: «إن نقص الكون هو عين كماله، مثل اعوجاج القوس هو عين صلاحيته، ولو أنه استقام لما رمى».

- والوسطية الإسلامية هى الوسطية الجامعة لعناصر الحق والعدل من الأقطاب المتقابلة «وبالمعنى العلمى كان الإسلام تركيبا جدليا جامعا بين مادية اليهودية والروحانية المسيحية، وبين العدل الصارم الجاف الذى يقول: السن بالسن والعين بالعين، وبين المحبة والتسامح المتطرف الذى يقول: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر.

وجاء القرآن وسطا بين التوراة التى حرفت حتى أصبحت كتابًا ماديًا ليس فيه حرف واحد عن الآخرة، وبين الإنجيل الذى مال إلى رهبانية تامة، فنادى القرآن بناموس الرحمة الجامع بين العدل والمحبة، فقال بشرعية الدفاع عن النفس، ولكنه فضل العفو والصفح والمغفرة ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (الشورى : ٤٣)

وإذا كانت الرأسمالية أطلقت للفرد حرية الكسب إلى درجة استغلال الآخرين، وإذا كانت الشيوعية سحقت هذه الحرية تمامًا، فإن الإسلام قدم الحل الوسط ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾ (النساء : ٣٢) ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة : ١٤٣) فقد اختار

الإسلام الوسط العدل فى كل شىء. وهو ليس وسط الحسابى، وإنما الوسط الجدلى، أو هو التركيب الذى يجمع النقيضين (اليمين واليسار) ويتجاوزهما ويزيد عليهما ولذلك ليس فى الإسلام يمين ويسار، وإنما فيه «صراط» الاعتدال الوسط الذى نسميه الصراط المستقيم، من خرج عنه باليمين أو اليسار فقد انحرف..».

«كذلك يرفض الإسلام الفلسفة المثالية كما يرفض الفلسفة المادية، ويختار موقفًا وسطًا يرفض المثالية الفلسفية؛ لأن الفلسفة المثالية لا تعترف بوجود الآخرين ولا بوجود العالم الموضوعى كحقيقة خارجية مستقلة عن الذات العارفة كما يرفض الإسلام أيضًا الفلسفة المادية، لأن الفلسفة المادية تعترف بالعالم الموضوعى ولكنها تنكر ما وراءه، تنكر الغيب والله.

والإسلام بهذا يقدم فلسفة واقعية وفكرًا واقعيًا، فيعترف بالعالم الموضوعى ثم يضيف إلى هذا العالم كل الثراء الذى يتضمنه الوجود الإلهى الغيبى، ويقدم تركيبًا جدليا جامعًا بين فكر اليمين وفكر اليسار فى فلسفة جامعة ما زالت تتحدى كل اجتهاد المفكرين فتسبق ما سطروا من نظريات ظنية لا تقوم على يقين».

وليس صحيحًا ما يقال من أننا تخلفنا بالدين وتقدم الغرب بالإلحاد، والحق أننا تخلفنا حينما هجرنا أوامر ديننا وحينما

كان المسلمون يأتمرون بهذه الآيات حقًا كان هناك تقدم، وكانت هناك دولة من المحيط إلى المحيط وعلماء مثل ابن سينا فى الطب، وابن رشد فى الفلسفة، وابن الهيثم فى الرياضيات، وابن النفيس فى التشريح، وجابر بن حيان فى الكيمياء ..

وكانت الدنيا تأخذ عنا علومنا ومازالت مجمعات النجوم وأبراجها تحتفظ إلى الآن بأسمائها العربية فى المعاجم الأوروبية.

ولم يتقدم الغرب بالإلحاد، بل بالعلم وإنما وقع الخلط مما حدث فى العصور الوسطى من طغيان الكنيسة ومحاكم التفتيش وحجرها على العلم والعلماء وما حدث من سجن جاليليو وحرق جيوردانو برونو فحينما حكمت الكنيسة وانحرف بها البابوات عن أهدافها النبيلة كانت عنصر تأخر فتصور النقاد السطحيون أن هذا ينسحب أيضًا على الإسلام، وهو خطأ فالإسلام ليس فيه بابوات ولا كهنوت والله لم يقم بينه وبين المسلمين أوصياء ولا وسطاء».

والتجديد سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل وهو ضرورى فى المتغيرات لا فى ثوابت العقيدة وصلب الشريعة «ولذلك كان النظر فى الدين وتطوير فهمه مطلوبًا وتاريخ الإسلام كله حركات إحياء وتطوير والقرآن برىء من تهمة التحجير على الناس وكل شىء فى ديننا يقبل التطوير، ما عدا جوهر العقيدة

وصلب الشريعة، لأن الله واحد ولن يتطور إلى اثنين أو ثلاثة، هذا أمر مطلق وكذلك الشر شر والخير خير لن يصبح القتل فضيلة ولا السرقة حسنة ولا الكذب حلية يتحلى بها الصالحون.

وجوهر الإسلام عقلانى منطقى يقبل الجدل والحوار ويحض على استخدام العقل والمنطق».

كذلك امتاز الإسلام وتميز فى نظم الحكم فلقد أتى بأكثر الشرائع تقدمية فى نظم الحكم وفى شرعيته هذه إذا قتل الحاكم فردًا واحدًا ظلمًا، فإنه يكون كمن قتل الناس جميعًا فالفرد فى الإسلام له قيمة مطلقة فى حين أن قيمته نسبية فى كل المذاهب السياسية».

وبنظرة موضوعية، جمعت بين العلم والإيمان، تناول الدكتور مصطفى محمود نظرية داروين فى التطور والنشوء والارتقاء فميز بين ما لداروين وبين ما عليه، وقال: «لقد أصاب داروين وأبدع حينما تحدث عن التشابه التشريحى بين الحيوانات وأصاب حينما قال بالتطور...

ولكنه أخطأ حينما حاول أن يفسر عملية الارتقاء، وأخطأ حينما حاول أن يتصور مراحل هذا الارتقاء وتفاصيله، كان تفسير داروين لعملية الارتقاء أنه يتم بالعوامل المادية التلقائية وحدها حيث تتقاتل الحيوانات بالناب والمخلب فى صراع الحياة الدموى الرهيب فيموت الضعيف ويكون البقاء دائمًا



للأصلح، تلك الحرب الناشبة في الطبيعة هي التي تفرز الصالح والقوى وتشجعه وتبقى على نسله وتفسح أمامه سبل الحياة.

وإذا كانت هذه النظرية تفسر لنا بقاء الأقوى، فإنها لا تفسر لنا بقاء الأجمل، وإذا دخل تفضيل الأجمل في الحساب فإن النظرية المادية تنهار من أساسها وتبقى النظرية بعد ذلك عاجزة عن تفسير لماذا خرج من عائلة الحمار شيء كالحصان ولماذا خرج من عائلة الوعل شيء رقيق مرهف وجميل كالغزال مع أنه أقل قوة وأقل احتمالا كيف نفسر جناح الهدهد وريشة الطاووس وموديلات الفراش بألوانها البديعة ونقوشها المذهلة نحن هنا أمام يد مصور فنان ماهر يتفنن ويبدع ولسنا أمام عملية غليظة كصراع البقاء وحرب المخلب والناب ..

وخطأ هذه النظرية أنها أقامت التطور على أساس الطفرات والأخطاء العشوائية وأسقطت عملية التدبير والإبداع تمامًا.

ولا يمكن أن تصلح الطفرات العشوائية أساسًا لما نرى حولنا من دقة وإبداع وإحكام في كل شيء ولا يمكن تصور حدوث الارتقاء بدون هذا العقل المبدع ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه : ٥٠)

والعقبة الثالثة أمام نظرية داروين هي ما اكتشفناه الآن باسم الخريطة الكروموسومية أو خريطة الجينات ونحن نعلم الآن أن لكل نوع حيواني خريطة كروموسومية خاصة به

ويستحيل أن يخرج نوع من نوع بسبب اختلاف هذه الخريطة الكروموسومية...

وربما كان أفضل فهم لعلمية التطور أنها كانت « تطويرًا بفعل فاعل وبذات مبدعة خلاقة ولم تكن تطورًا تلقائيًا كما تصورها داروين وصحبه ولم تكن مراحل متروكة للصدفة وإنما كانت تخليقًا مرادا ومخططًا لخالق حكيم وأنها هندسة وراثية لمهندس عظيم ليس كمثله شيء وما جاء فى القرآن الكريم هو أصدق صورة لما حدث.

تلك إشارات - مجرد إشارات - إلى ما فى هذه الرائعة من روائع الدكتور مصطفى محمود (حوار مع صديقى الملحد) نقدم بها بين يدى هذه الطبعة سائلين المولى جل وعلا أن يجعلها فى ميزان حسنات هذا الفارس من فرسان الكلمة الإسلامية وهذا العقل الذى فقه أصول الإسلام وفقه الواقع الإسلامى واستشرف المستقبل إنه سبحانه وتعالى خير مسئول وأكرم مجيب.

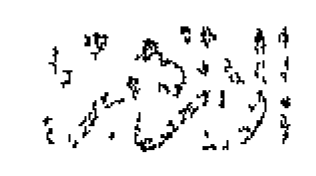
دكتور

محمد عمارة

١٥ ذى الحجة سنة ١٤٣٥هـ

٩ أكتوبر سنة ٢٠١٤ م





مقدمـة..

لأن الله غيب.. ولأن المستقبل غيب.. ولأن الآخرة غيب.. ولأن من يذهب إلى القبر لا يعود.. راجت بضاعة الإلحاد.. وسادت الأفكار المادية.. وعبد الناس أنفسهم واستسلموا لشهواتهم وانكبوا على الدنيا يتقاتلون على منافعها.. وظن أكثرهم أن ليس وراء الدنيا شىء وليس بعد الحياة شىء.. وتقاتلت الدول الكبرى على ذهب الأرض وخيراتها.. وأصبح للكفر نظريات، وللمادية فلسفات، وللإنكار محاريب وسدنة وللمنكرين كعبة يتعلقون بأهدابها ويحجون إليها فى حلهم وترحالهم.. كعبة مهيبة يسمونها «العلم».

وحينما ظهر أمر «الجينوم البشرى» ذلك الكتيب الصغير من خمسة ملايين صفحة فى خلايا كل منا والمدون فى حيز خلوى ميكروسكوبى فى ثلاثة مليارات من الحروف الكيميائية عن قدر كل منا ومواطن قوته ومواطن ضعفه وصحته وأمراضه.. أفاق العالم كله ـ كأنما بصدمة كهربائية.. كيف؟.. ومتى؟.. وبأى قلم غير مرئى كتب هذا «السفر» الدقيق عن مستقبل لم يأت بعد.. ومن الذى كتب كل تلك المعلومات.. وبأى وسيلة.. ومن الذى يستطيع أن يدون مثل تلك المدونات.

ورأينا كلينتون رئيس أكبر دولة فى العالم يطالعنا فى التلفزيون ليقول فى نبرات خاشعة : أخيرًا أمكن جمع المعلومات الكاملة



عن الجينوم البشرى وأوشك العلماء أن يفضوا الشفرة التى كتب الله بها أقدارنا . .

هكذا ذكر «الله» بالاسم فى بيانه . .

نعم . . كانت صحوة مؤقتة . . أعقبها جدل . . وضجيج . . وعجيج . . وتكلم الكثير . . باسم الدين . . وباسم العلم . . واختلفوا .

وعادت الأسئلة القديمة عن حرية الإنسان . . وهل هو مسيَّر أم مخيَّر . .

وإذا كان الله قدَّر علينا أفعالنا فلماذا يحاسبنا ؟!

ولماذا خلق الله الشر . .

وما ذنب الذى لم يصله قرآن . .

وما موقف الدين من التطور . . ولماذا نقول باستحالة أن يكون القرآن مؤلَّفا .

وعاد ذلك الحوار القديم مع صديقى الملحد ليتردد . . وعادت موضوعاته . . عن الجبر والاختيار . . والبعث . . والمصير . . والحساب . . لتصبح مواضيع الساعة .

وتعود هذه الطبعة الجديدة فى وقتها وميعادها . . لتشارك فى حل هذا اللغز . . ولتعود لتثير الموضوع من منطلق العلم الثابت والإشارات القرآنية . . واليقين الإلهى الذى لا يتزلزل . جاء كتابنا مرة أخرى . . فى ميعاده .

ومرحبا مرة أخرى بالحوار الهادئ البناء .

مصطفى محمود



الفصل الأول

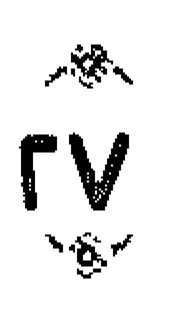
لم يلد ولم يولد

صديقي رجل يحب الجدل ويهوى الكلام.. وهو يعتقد أننا ـ نحن المؤمنين السذج ـ نقتات بالأوهام ونضحك على أنفسنا بالجنة والحور العين، وتفوتنا لذات الدنيا ومفاتنها.. وصديقي بهذه المناسبة تخرج في فرنسا وحصل على دكتوراه.. وعاش مع الهيبز وأصبح ينكر كل شيء.

قال لي ساخرًا:

أنتم تقولون: إن الله موجود.. وعمدة براهينكم هو قانون «السببية» الذي ينص على أن لكل صنعة صانعًا.. ولكل خلق خالقًا.. ولكل وجود موجدا.. النسيج يدل على النسّاج.. والرسم يدل على الرسّام.. والنقش يدل على النقّاش.. والكون بهذا المنطق أبلغ دليل على الإله القدير الذي خلقه. صدّقنا وآمنّا بهذا الخالق.. ألا يحق لنا بنفس المنطق أن نسأل.. ومن خلق الخالق.. من خلق الله الذي تحدثوننا عنه.. ألا تقودنا نفس استدلالاتكم إلى هذا.. وتبعًا لنفس قانون السببية.. ما رأيكم في هذا المطب دام فضلكم؟

ونحن نقول له: سؤالك فاسد.. ولا مطب ولا حاجة فأنت تسلّم بأن الله خالق ثم تقول مَن خلقه؟! فتجعل منه خالقًا ومخلوقًا في نفس الجملة وهذا تناقض..




والوجه الآخر لفساد السؤال أنك تتصور خضوع الخالق لقوانين مخلوقاته.. فالسببية قانوننا نحن أبناء الزمان والمكان.

والله الذى خلق الزمان والمكان هو بالضرورة فوق الزمان والمكان ولا يصح لنا أن نتصوره مقيدًا بالزمان والمكان.. ولا بقوانين الزمان والمكان.

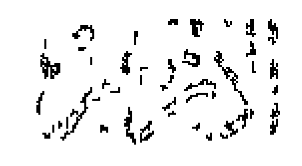
والله هو الذى خلق قانون السببية.. فلا يجوز أن نتصوره خاضعًا لقانون السببية الذى خلقه.

وأنت بهذه السفسطة أشبه بالعرائس التى تتحرك بزمبلك.. وتتصور أن الإنسان الذى صنعها لا بد هو الآخر يتحرك بزمبلك.. فإذا قلنا لها بل هو يتحرك من تلقاء نفسه.. قالت : مستحيل أن يتحرك شىء من تلقاء نفسه.. إنى أرى فى عالمى كل شىء يتحرك بزمبلك.

وأنت بالمثل لا تتصور أن الله موجود بذاته بدون موجد.. لمجرد أنك ترى كل شىء حولك فى حاجة إلى موجد.

وأنت كمن يظن أن الله محتاج إلى براشوت لينزل على البشر ومحتاج إلى أتوبيس سريع ليصل إلى أنبيائه.. سبحانه وتعالى عن هذه الأوصاف علوًا كبيرًا.





«وعمانويل كانت»(٢) الفيلسوف الألماني في كتابه «نقد العقل الخالص» أدرك أن العقل لا يستطيع أن يحيط بكنه الأشياء وأنه مُهيّأ بطبيعته لإدراك الجزئيات والظواهر فقط.. في حين أنه عاجز عن إدراك الماهيات المجردة مثل الوجود الإلهي.. وإنما عرفنا الله بالضمير وليس بالعقل.. شوقنا إلى العدل كان دليلنا على وجود العادل.. كما أن ظمأنا إلى الماء هو دليلنا على وجود الماء..

أما أرسطو(٣) فقد استطرد في تسلسل الأسباب قائلاً: إن الكرسي من الخشب والخشب من الشجرة.. والشجرة من البذرة.. والبذرة من الزارع.. واضطر إلى القول بأن هذا الاستطراد المتسلسل في الزمن اللانهائي لابد أن ينتهي بنا في البدء الأول إلى سبب في غير حاجة إلى سبب.. سبب أول أو محرك أول في غير حاجة إلى من يحركه.. خالق في غير حاجة إلى خالق.. وهو نفس ما نقوله عن الله..

أما ابن عربي(٤) فكان رده على هذا السؤال «سؤال مَنْ خلق

---

(٢) كانت ـ عمانويل [١٧٢٤-١٨٠٤م] فيلسوف ألماني، وضعت فلسفته العقل في صلب الوجود ومحوره، من آثاره: [نقد العقل المحض] و[نقد العقل العملي] و[نقد الحكم] و[أسس ما ورائية الأخلاق].

(٣) أرسطو [٣٨٤-٣٢٢ ق.م] أشهر فلاسفة اليونان، ومؤسس مذهب [فلسفة المشائين]. من آثاره: [المقولات] و[الجدل] و[الخطابة] و[السياسة] و[النفس] و[كتاب ما وراء الطبيعة].

(٤) ابن عربي محيي الدين- [٥٦٠-٦٣٨هـ- ١١٦٥-١٢٤٠م] الشيخ الأكبر عند الصوفية، من أشهر كتبه الأربعمائة: [الفتوحات المكية] و[فصوص الحكم] و[مفاتيح الغيب] و[محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار].



الخالق» .. بأنه سؤال لا يرد إلا على عقل فاسد .. فالله هو الذى يبرهن على الوجود ولا يصح أن نتخذ من الوجود برهانًا على الله .. تمامًا كما نقول إن النور يبرهن على النهار .. ونعكس الآية لو قلنا إن النهار يبرهن على النور ..

يقول الله فى حديث قدسى : (أنا يُستدل بى .. أنا لا يُستدل علىّ) ..

فالله هو الدليل الذى لا يحتاج إلى دليل .. لأنه الله الحق الواضح بذاته .. وهو الحجة على كل شىء .. الله ظاهر فى النظام والدقة والجمال والإحكام .. فى ورقة الشجر .. فى ريشة الطاووس .. فى جناح الفراش .. فى عطر الورد .. فى صدح البلبل .. فى ترابط النجوم والكواكب .. فى هذا القصيد السيمفونى الذى اسمه الكون .. لو قلنا إن كل هذا جاء مصادفة .. لكنا كمن يتصور أن إلقاء حروف مطبعة فى الهواء يمكن أن يؤدى إلى تجمعها تلقائيًا على شكل قصيدة شعر لشكسبير[٥] بدون شاعر وبدون مؤلف .

والقرآن يغنينا عن هذه المجادلات بكلمات قليلة وبليغة فيقول بوضوح قاطع ودون تفلسف :

---

(٥) شكسبير ـ وليم [١٥٦٤-١٦١٦م] شاعر مسرحى إنجليزي، بلغ مرتبة العالمية، وترجمت كثير من مسرحياته وعرضتّ فى أغلب بلاد العالم، منها : [هملت] و[عطيل] و[تاجر البندقية] و[يوليوس قيصر] .



﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ (الإخلاص : ١-٤)

ويسألنا صاحبنا ساخرًا : ولماذا تقولون إن الله واحد . . ؟ لماذا لا يكون الآلهة متعددين . . ؟ يتوزعون بينهم الاختصاصات ؟

وسوف نرد عليه بالمنطق الذى يعترف به . . بالعلم وليس بالقرآن . .

سوف نقول له إن الخالق واحد ، لأن الكون كله مبنى من خامة واحدة وبخطة واحدة . . فمن الأيدروجين تألفت العناصر الاثنان والتسعون التى فى جدول «مندليف»[٦] بنفس الطريقة . . «بالإدماج» وإطلاق الطاقة الذرية التى تتأجج بها النجوم وتشتعل الشموس فى فضاء الكون .

كما أن الحياة كلها بنيت من مركبات الكربون «جميع صنوف الحياة تتفحم بالاحتراق» وعلى مقتضى خطة تشريحية واحدة . . تشريح الضفدعة ، والأرنب ، والحمامة ، والتمساح ، والزرافة ، والحوت ، يكشف عن خطة تشريحية واحدة ، نفس الشرايين والأوردة وغرفات القلب ، ونفس العظام ، كل عظمة لها نظيرتها . . الجناح فى الحمامة هو الذراع فى الضفدعة . . نفس العظام مع تحور طفيف . . والعنق فى الزرافة على طوله نجد

(٦) مندليف ـــ دمترى إيفانوفتش [١٨٣٤ - ١٩٠٧م] كميائى روسي ، وضع ترتيب العناصر الكيماوية ١٨٦٩م .

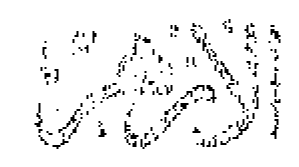


فيه نفس الفقرات السبع التى تجدها فى عنق القنفذ.. والجهاز العصبى هو هو فى الجميع، يتألف من مخ وحبل شوكي وأعصاب حس وأعصاب حركة.. والجهاز الهضمى من معدة واثنى عشر، وأمعاء دقيقة وأمعاء غليظة، والجهاز التناسلى نفس المبيض والرحم والخصية وقنواتها.. والجهاز البولى الكلية والحالب، وحويصلة البول.. ثم الوحدة التشريحية فى الجميع هى الخلية.. وهى فى النبات كما فى الحيوان كما فى الإنسان، بنفس المواصفات، تتنفس وتتكاثر وتموت وتولد بنفس الطريقة.. فأية غرابة بعد هذا أن نقول إن الخالق واحد؟.. ألا تدل على ذلك وحدة الأساليب؟!.

ولماذا يتعدد الكامل..؟ وهل به نقص ليحتاج إلى من يكمله؟.. إنما يتعدد الناقصون.

ولو تعدد الآلهة لاختلفوا، ولذهب كل إله بما خلق، ولفسدت السماوات والأرض، والله له الكبرياء والجبروت وهذه صفات لا تحتمل الشركة..

ويسخر صاحبنا من معنى الربوبية كما نفهمه.. ويقول أليس عجيبًا ذلك الرب الذى يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة، فيأخذ بناصية الدابة، ويوحى إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، وما تخرج من ثمرات من أكمامها إلاّ



أحصاها عددا، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه.. وإذا عثرت قدم فى حفرة فهو الذى أعثرها.. وإذا سقطت ذبابة فى طعام فهو الذى أسقطها.. وإذا تعطلت الحرارة فى تليفون فهو الذى عطلها.. وإذا امتنع المطر فهو الذى منعه، وإذا هطل فهو الذى أهطله.. ألا تشغلون إلهكم بالكثير التافه من الأمور بهذا الفهم.. ولا أفهم أيكون الرب فى نظر السائل أجدر بالربوبية لو أنه أعفى نفسه من هذه المسئوليات وأخذ إجازة وأدار ظهره للكون الذى خلقه وتركه يأكل بعضه بعضًا!

هل الرب الجدير فى نظره هو رب عاطل مغمى عليه لا يسمع ولا يرى ولا يستجيب ولا يعتنى بمخلوقاته؟.. ثم من أين للسائل بالعلم بأن موضوعًا ما تافهًا لا يستحق تدخل الإله، وموضوعًا آخر مهمًا وخطير الشأن؟

إن الذبابة التى تبدو تافهة فى نظر السائل لا يهم فى نظره أن تسقط فى الطعام أو لا تسقط، هذه الذبابة يمكن أن تغيّر التاريخ بسقوطها التافه ذلك.. فإنها يمكن أن تنقل الكوليرا إلى جيش وتكسب معركة لطرف آخر، تتغير بعدها موازين التاريخ كله.

ألم تقتل الإسكندر الأكبر[٧] بعوضة؟

(٧) الإسكندر الأكبر [٣٥٦- ٣٢٣ق.م] من أشهر الغزاة فى التاريخ، حارب الفرس وهزم ملكهم داريوس الثالث ٣٣٣ق.م وأسس الإسكندرية ٣٣٢ق.م ولقد تواصلت غزوته للشرق حتى حررته الفتوحات الإسلامية.



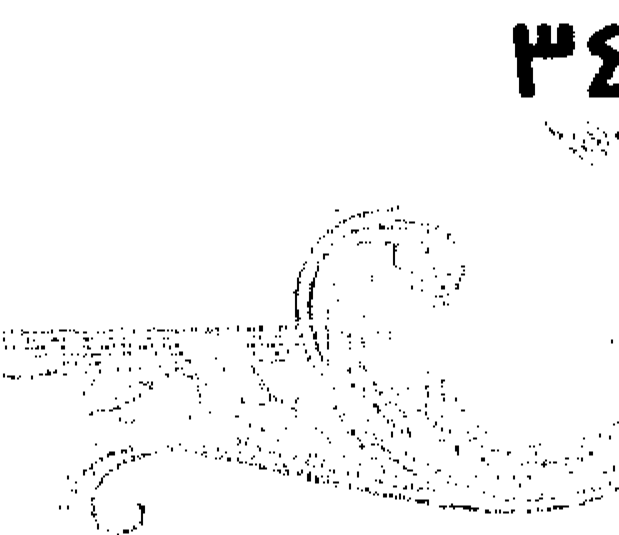
إن أتفه المقدمات ممكن أن تؤدى إلى أخطر النتائج.. وأخطر المقدمات ممكن أن تنتهى إلى لا شىء..وعالم الغيب وحده هو الذى يعلم قيمة كل شىء.

وهل تصور السائل نفسه وصيًا على الله يحدد له اختصاصاته.. تقدّس وتنزّه ربنا عن هذا التصور الساذج.

إنما الإله الجدير بالألوهية هنا هو الإله الذى أحاط بكل شىء علمًا.. لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

الإله السميع المجيب، المعتنى بمخلوقاته.

***



الفصل الثانى

إذا كان اللّه قدَّر علىّ أفعالى فلماذا يحاسبنى؟

قال صديقى فى شماتة وقد تصوّر أنه أمسكنى من عنقى وأنه لا مهرب لى هذه المرة :

أنتم تقولون إن الله يُجرى كل شىء فى مملكته بقضاء وقدر، وأن الله قَّدر علينا أفعالنا ، فإذا كان هذا هو حالى ، وأن أفعالى كلها مقدّرة عنده فلماذا يحاسبنى عليها ؟

لا تقل لى كعادتك . . أنا مخيَّر . . فليس هناك فرية أكبر من هذه الفرية ودعنى أسألك :

هل خُيّرتُ فىَ ميلادى وجنسى وطولى وعرضى ولونى ووطنى ؟

هل باختيارى تشرق الشمس ويغرب القمر ؟

هل باختيارى ينزل علىَّ القضاء ويفاجئنى الموت وأقع فى المأساة فلا أجد مخرجًا إلا الجريمة . .

لماذا يُكرهنى الله على فعل ثم يؤاخذنى عليه ؟

وإذا قلت إنك حر ، وإن لك مشيئة إلى جوار مشيئة الله ألا تشرك بهذا الكلام وتقع فى القول بتعدد المشيئات ؟

ثم ما قولك فى حكم البيئة والظروف ، وفى الحتميات التى يقول بها الماديون التاريخيون ؟

أطلق صاحبى هذه الرصاصات ثم راح يتنفس الصعداء فى راحة وقد تصوَّر أنى توفيت وانتهيت، ولم يبق أمامه إلا استحضار الكفن..

قلت له فى هدوء :

أنت واقع فى عدة مغالطات.. فأفعالك معلومة عند الله فى كتابه، ولكنها ليست مقدورة عليك بالإكراه.. إنها مقدَّرة فى علمه فقط.. كما تقدِّر أنت بعلمك أن ابنك سوف يزنى.. ثم يحدث أن يزنى بالفعل.. فهل أكرهته.. أو كان هذا تقديرًا فى العلم وقد أصاب علمك ..

أما كلامك عن الحرية بأنها فرية، وتدليلك على ذلك بأنك لم تخيَّر فى ميلادك ولا فى جنسك ولا فى طولك ولا فى لونك ولا فى موطنك، وأنك لا تملك نقل الشمس من مكانها.. هو تخليط آخر ..

وسبب التخليط هذه المرة أنك تتصوَّر الحرية بالطريقة غير تلك التى نتصورها نحن المؤمنين ..

أنت تتكلم عن حرية مطلقة.. فتقول.. أكنت أستطيع أن أخلق نفسى أبيض أو أسود أو طويلا أو قصيرًا.. هل بإمكانى أن أنقل الشمس من مكانها أو أوقفها فى مدارها.. أين حريتى؟

ونحن نقول له : أنت تسأل عن حرية مطلقة.. حرية التصرف فى الكون وهذه ملك لله وحده.. نحن أيضًا لا نقول بهذه الحرية



﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ﴾

(القصص : ٦٨)

ليس لأحد الخيرة فى مسألة الخلق، لأن الله هو الذى يخلق ما يشاء ويختار ..

ولن يحاسبك الله على قِصَرك ولن يعاتبك على طولك ولن يعاقبك لأنك لم توقف الشمس فى مدارها، ولكن مجال المساءلة هو مجال التكليف.. وأنت فى هذا المجال حر.. وهذه هى الحدود التى نتكلم فيها..

أنت حر فى أن تقمع شهوتك وتلجم غضبك وتقاوم نفسك وتزجر نياتك الشريرة وتشجع ميولك الخيرة..

أنت تستطيع أن تجود بمالك ونفسك..

أنت تستطيع أن تصدق وأن تكذب..

وتستطيع أن تكف يدك عن المال الحرام..

وتستطيع أن تكف بصرك عن عورات الآخرين..

وتستطيع أن تمسك لسانك عن السباب والغيبة والنميمة..

فى هذا المجال نحن أحرار ..

وفى هذا المجال نُحاسَب ونُسأل ..

الحرية التى يدور حولها البحث هى الحرية النسبية وليست الحرية المطلقة حرية الإنسان فى مجال التكليف..

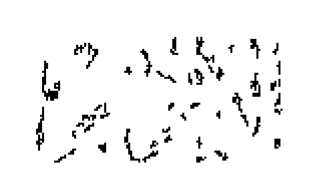


وهذه الحرية حقيقة ودليلنا عليها هو شعورنا الفطرى بها فى داخلنا فنحن نشعر بالمسئولية وبالندم على الخطأ، وبالراحة للعمل الطيب.. ونحن نشعر فى كل لحظة أننا نختار ونوازن بين احتمالات متعددة، بل إن وظيفة عقلنا الأولى هى الترجيح والاختيار بين البديلات..

ونحن نفرق بشكل واضح وحاسم بين يدنا وهى ترتعش بالحمى، ويدنا وهى تكتب خطابًا.. فنقول إن حركة الأولى جبرية قهرية، والحركة الثانية حرة اختيارية.. ولو كنا مسيرين فى الحالتين لما استطعنا التفرقة.

ويؤكد هذه الحرية ما نشعر به من استحالة إكراه القلب على شىء لا يرضاه تحت أى ضغط.. فيمكنك أن تُكره امرأة بالتهديد والضرب على أن تخلع ثيابها.. ولكنك لا تستطيع بأى ضغط أو تهديد أن تجعلها تحبك من قلبها ومعنى هذا أن الله أعتق قلوبنا من كل صنوف الإكراه والإجبار، وأنه فطرها حرة..

ولهذا جعل الله القلب والنية عمدة الأحكام، فالمؤمن الذى ينطق بعبارة الشرك والكفر تحت التهديد والتعذيب لا يحاسب على ذلك طالما أن قلبه من الداخل مطمئن بالإيمان، وقد استثناه الله من المؤاخذة فى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ (النحل: ١٠٦)



والوجه الآخر من الخلط فى هذه المسألة أن بعض الناس يفهم حرية الإنسان بأنها علو على المشيئة، وانفراد بالأمر، فيتهم القائلين بالحرية بأنهم أشركوا بالله وجعلوا له أندادًا يأمرون كأمره، ويحكمون كحكمه، وهذا ما فهمته أنت أيضًا.. فقلت بتعدد المشيئات.. وهو فهم خاطئ.. فالحرية الإنسانية لا تعلو على المشيئة الإلهية.

إن الإنسان قد يفعل بحريته ما ينافى الرضا الإلهى ولكنه لا يستطيع أن يفعل ما ينافى المشيئة..

الله أعطانا الحرية أن نعلو على رضاه «فنعصيه»، ولكن لم يعط أحدًا الحرية فى أن يعلو على مشيئته.. وهنا وجه آخر من وجوه نسبية الحرية الإنسانية.

وكل ما يحدث منا داخل فى المشيئة الإلهية وضمنها، وإن خالف الرضا الإلهى وجانب الشريعة ..

وحريتنا ذاتها كانت منحة إلهية وهبة منحها لنا الخالق باختياره.. ولم نأخذها منه كرهًا ولا غصبًا.

إن حريتنا كانت عين مشيئته.

ومن هنا معنى الآية: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾
(الإنسان: ٣٠)

لأن مشيئتنا ضمن مشيئته، ومنحة منه، وهبة من كرمه وفضله، فهي ضمن إرادته لا ثنائية ولا تناقض، ولا منافسة منا لأمر الله وحكمه..

والقول بالحرية بهذا المعنى لا ينافي التوحيد، ولا يجعل لله أندادًا يحكمون كحكمه ويأمرون كأمره.. فإن حرياتنا كانت عين أمره ومشيئته وحكمه ..

والوجه الثالث للخلط أن بعض من تناولوا مسألة القضاء والقدر والتسيير والتخيير.. فهموا القضاء والقدر بأنه إكراه للإنسان على غير طبعه وطبيعته وهذا خطأ وقعت فيه أنت أيضًا.. وقد نفى الله عن نفسه الإكراه بآيات صريحة :

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾
(الشعراء : ٤)

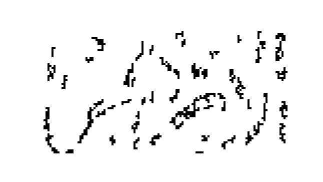
والمعنى واضح.. أنه كان من الممكن أن نُكره الناس على الإيمان بالآيات الملزمة، ولكننا لم نفعل.. لأنه ليس في سنتنا الإكراه ..

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾

(البقرة : ٢٥٦)

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس : ٩٩)





ليس فى سُنة الله الإكراه..

والقضاء والقدر لا يصح أن يُفهم على أنه إكراه للناس على غير طبائعهم.. وإنما على العكس..

الله يقضى على كل إنسان من جنس نيته.. ويشاء له من جنس مشيئته، ويريد له من جنس إرادته، لا ثنائية ... تسيير الله هو عين تخيير العبد، لأن الله يسيِّر كل امرئ على هوى قلبه وعلى مقتضى نياته..

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ (الشورى : ٢٠)

﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ ﴾ (البقرة : ١٠)

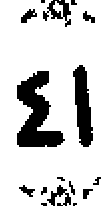
﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ (محمد : ١٧)

وهو يخاطب الأسرى فى القرآن :

﴿ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾ (الأنفال : ٧٠)

الله يقضى ويقدِّر، ويجرى قضاءه وقدره على مقتضى النية والقلب.. إن شرًا فشر وإن خيرًا فخير..

ومعنى هذا أنه لا ثنائية.. التسيير هو عين التخيير.. ولا ثنائية ولا تناقض..



الله يسيِّرنا إلى ما اخترناه بقلوبنا ونياتنا، فلا ظلم ولا إكراه ولا جبر، ولا قهر لنا على غير طبائعنا ..

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾

(الليل : ٥-١٠)

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (الأنفال: ١٧)

هنا تلتقي رمية العبد والرمية المقدَّرة من الرب، فتكون رمية واحدة.. وهذا مفتاح لغز القضاء والقدر.. على العبد النية، وعلى الله التمكين، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.. والحرية الإنسانية ليست مقدارًا ثابتًا، ولكنها قدرة نسبية قابلة للزيادة.

الإنسان يستطيع أن يزيد من حريته بالعلم.. باختراع الوسائل والأدوات والمواصلات استطاع الإنسان أن يطوى الأرض، ويهزم المسافات، ويخترق قيود الزمان والمكان.. وبدراسة قوانين البيئة استطاع أن يتحكم فيها ويسخرها لخدمته، وعرف كيف يهزم الحر والبرد والظلام، وبذلك يضاعف من حرياته فى مجال الفعل ..

العلم كان وسيلة إلى كسر القيود والأغلال وإطلاق الحرية.. أما الوسيلة الثانية فكانت الدين.. الاستمداد من الله بالتقرب



منه.. والأخذ عنه بالوحى والتلقى والتأييد.. وهذه وسيلة الأنبياء ومن فى دربهم..

سخّر سليمان الجن وركب الريح وكلّم الطير بمعونة الله ومدده..

وشق موسى البحر.. وأحيا المسيح الموتى.. ومشى على الماء.. وأبرأ الأكمه والأبرص والأعمى..

ونقرأ عن الأولياء أصحاب الكرامات الذين تُطوى لهم الأرض وتكشف لهم المغيبات..

وهى درجات من الحرية اكتسبوها بالاجتهاد فى العبادة والتقرب إلى الله والتحبب إليه.. فأفاض عليهم من علمه المكنون..

إنه العلم مرة أخرى..

ولكنه هذه المرة العلم «اللدنى»..

ولهذا يُلخص أبو حامد الغزالى(٨) مشكلة المخيَّر والمسيَّر قائلًا فى كلمتين :

---

(٨) الغزالى أبو حامد [٤٥٠-٥٠٥هـ ١٠٥٨-١١١١م] حجة الإسلام، فيلسوف وصوفى وأصولى وفقيه ومتكلم . له حضور كبير فى الفكر الإسلامى منذ عصره وحتى الآن، وهو أحد مجددى الأشعرية، ومن آثاره [إحياء علوم الدين] و[المنقذ من الضلال] و[المستصفى من أصول الفقه] و[فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] و[الاقتصاد فى الاعتقاد] و[إلجام العوام عن علم الكلام] و[مشكاة الأنوار]



الإنسان مخيَّر فيما يعلم..

مسيَّر فيما لا يعلم..

وهو يعني بهذا أنه كلما اتسع علمه اتسع مجال حريته.. سواء كان العلم المقصود هو العلم الموضوعي أو العلم اللدنِّي..

ويخطئ المفكرون الماديون أشد الخطأ حينما يتصورون الإنسان أسير الحتميات التاريخية والطبقية..

ويجعلون منه حلقة في سلسلة من الحلقات لا فكاك له، ولا مهرب من الخضوع لقوانين الاقتصاد وحركة المجتمع، كأنما هو قشة في تيار بلا ذراعين وبلا إرادة ..

والكلمة التي يرددونها ولا يتعبون من ترديدها وكأنها قانون : «حتمية الصراع الطبقي» وهي كلمة خاطئة في التحليل العلمي، لأنه لا حتميات في المجال الإنساني، وإنما على الأكثر ترجيحات واحتمالات.. وهذا هو الفرق بين الإنسان، وبين التروس، والآلات والأجسام المادية.. فيمكن التنبؤ بخسوف الشمس بالدقيقة والثانية، ويمكن التنبؤ بحركاتها المستقبلة على مدى أيام وسنين.. أما الإنسان فلا يمكن أن يعلم أحد ماذا يُضمر وماذا يُخبئ في نياته، وماذا يفعل غدًا أو بعد غد.. ولا يمكن معرفة هذا إلا على سبيل الاحتمال والترجيح والتخمين، وذلك على فرض توفر المعلومات الكافية للحكم.

وقد أخطأت جميع تنبؤات كارل ماركس[٩]، فلم تبدأ الشيوعية فى بلد متقدم كما تنبأ، بل فى بلد متخلف، ولم يتفاقم الصراع بين الرأسمالية والشيوعية، بل تقارب الاثنان إلى حالة من التعايش السلمي، وأكثر من هذا فتحت البلاد الشيوعية أبوابها لرأس المال الأمريكى.. ولم تتصاعد التناقضات فى المجتمع الرأسمالى إلى الإفلاس الذى توقعه كارل ماركس، بل على العكس، ازدهر الاقتصاد الرأسمالى ووقع الشقاق والخلاف بين أطراف المعسكر الاشتراكى ذاته. أخطأت حسابات ماركس جميعها دالة بذلك على خطأ منهجه الحتمى.. ورأينا صراع العصر الذى يحرك التاريخ هو الصراع اللاطبقى بين الصين وروسيا، وليس الصراع الطبقى الذى جعله ماركس عنوان منهجه.. وكلها شواهد على فشل الفكر المادى فى فهم الإنسان والتاريخ، وتخبطه فى حساب المستقبل.. وجاء كل ذلك نتيجة خطأ جوهرى، هو أن الفكر المادى تصوّر أن الإنسان ذبابة فى شبكة من الحتميات.. ونسى تمامًا أنّ الإنسان حر.. وأن حريته حقيقة..

أمّا كلام الماديين عن حكم البيئة والمجتمع والظروف، وأن الإنسان لا يعيش وحده ولا تتحرك حريته فى فراغ..

(٩) ماركس- كارل [١٨١٨-١٨٨٣م] فيلسوف ألماني، صار علما على الشيوعية، ومؤسسا للمادية الجدلية والتاريخية. من أبرز آثاره [رأس المال] و[البيان الشيوعي] بالاشتراك مع إنجلز.

نقول ردًّا على هذا الكلام : إن حكم البيئة والمجتمع والظروف كمقاومات للحرية الفردية إنما يؤكد المعنى الجدلى لهذه الحرية ولا ينفيه.. فالحرية الفردية.. لا تؤكد ذاتها إلاّ فى وجه مقاومة تزحزحها..

أما إذا كان الإنسان يتحرك فى فراغ بلا مقاومة من أى نوع فإنه لا يكون حرًا بالمعنى المفهوم للحرية، لأنه لن تكون هناك عقبة يتغلب عليها ويؤكد حريته من خلالها.

***

الفصل الثالث
لماذا خلق الله الشر؟

قال صاحبى ساخرًا:

كيف تزعمون أن إلهكم كامل ورحمن ورحيم وكريم ورءوف وهو قد خلق كل هذه الشرور فى العالم.. المرض والشيخوخة والموت والزلزال والبركان والميكروب والسم والحر والزمهرير وآلام السرطان التى لا تعفى الطفل الوليد ولا الشيخ الطاعن.

إذا كان الله محبة وجمالا وخيرا فكيف يخلق الكراهية والقبح والشر.

والمشكلة التى أثارها صاحبى من المشاكل الأساسية فى الفلسفة وقد انقسمت حولها مدارس الفكر واختلفت حولها الآراء.

ونحن نقول إن الله كله رحمة وكله خير وأنه لم يأمر بالشر ولكنه سمح به لحكمة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٢٨ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ﴾
(الأعراف: ٢٨، ٢٩)

الله لا يأمر إلا بالعدل والمحبة والإحسان والعفو والخير وهو لا يرضى إلا بالطيب.

فلماذا ترك الظالم يظلم والقاتل يقتل والسارق يسرق؟

لأن الله أرادنا أحرارا.. والحرية اقتضت الخطأ ولا معنى للحرية دون أن يكون لنا حق التجربة والخطأ والصواب.. والاختيار الحر بين المعصية والطاعة.

وكان في قدرة الله أن يجعلنا جميعًا أخيارا وذلك بأن يقهرنا على الطاعة قهرا وكان ذلك يقتضي أن يسلبنا حرية الاختيار.

وفي دستور الله وسنته أن الحرية مع الألم أكرم للإنسان من العبودية مع السعادة.. ولهذا تركنا نخطيء ونتألم ونتعلم وهذه هى الحكمة فى سماحه بالشر.

ومع ذلك فإن النظر المنصف المحايد سوف يكشف لنا أن الخير في الوجود هو القاعدة وأن الشر هو الاستثناء.

فالصحة هى القاعدة والمرض استثناء ونحن نقضى معظم سنوات عمرنا فى صحة ولا يزورنا المرض إلا أياما قليلة.. وبالمثل الزلازل هى فى مجملها بضع دقائق فى عمر الكرة الأرضية الذى يحصى بملايين السنين وكذلك البراكين وكذلك الحروب هى تشنجات قصيرة فى حياة الأمم بين فترات سلام طويلة ممتدة.

ثم إننا نرى لكل شيء وجه خير فالمرض يخلف وقاية والألم يربى الصلابة والجلد والتحمل والزلازل تنفس عن الضغط



المكبوت فى داخل الكرة الأرضية وتحمى القشرة الأرضية من الانفجار وتعيد الجبال إلى أماكنها كأحزمة وثقالات تثبت القشرة الأرضية فى مكانها، والبراكين تنفث المعادن والثروات الخبيئة الباطنة وتكسو الأرض بتربة بركانية خصبة.. والحروب تدمج الأمم وتلقح بينها وتجمعها فى كتل وأحلاف ثم فى عصبة أمم ثم فى مجلس أمن هو بمثابة محكمة عالمية للتشاكى والتصالح.. وأعظم الاختراعات خرجت أثناء الحروب.. البنسلين الذرة الصواريخ الطائرات النفاثة كلها خرجت من آتون الحروب.

ومن سم الثعبان يخرج الترياق.

ومن الميكروب نصنع اللقاح.

ولولا أن أجدادنا ماتوا لما كنا الآن فى مناصبنا، والشر فى الكون كالظل فى الصورة إذا اقتربت منه خيل إليك أنه عيب ونقص فى الصورة.. ولكن إذا ابتعدت ونظرت إلى الصورة ككل نظرة شاملة اكتشفت أنه ضرورى ولا غنى عنه وأنه يؤدى وظيفة جمالية فى البناء العام للصورة. وهل كان يمكننا أن نعرف الصحة لولا المرض.. إن الصحة تظل تاجا على رؤوسنا لا نراه ولا نعرفه إلا حينما نمرض.

وبالمثل ما كان ممكنا أن نعرف الجمال لولا القبح ولا الوضع الطبيعى لولا الوضع الشاذ.

ولهذا يقول الفيلسوف أبو حامد الغزالى: إن نقص الكون هو عين كماله مثل اعوجاج القوس هو عين صلاحيته ولو أنه استقام لما رمى.

وظيفة أخرى للمشقات والآلام.. أنها هى التى تفرز الناس وتكشف معادنهم.

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والإقدام قتال

إنها الامتحان الذى نعرف به أنفسنا.. والابتلاء الذى تتحدد به مراتبنا عند الله.

ثم إن الدنيا كلها ليست سوى فصل واحد من رواية سوف تتعدد فصولها فالموت ليس نهاية القصة ولكن بدايتها.

ولا يجوز أن نحكم على مسرحية من فصل واحد ولا أن نرفض كتابا لأن الصفحة الأولى لم تعجبنا.

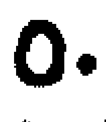
الحكم هنا ناقص..

ولا يمكن استطلاع الحكمة كلها إلا فى آخر المطاف.. ثم ما هو البديل الذى يتصوره السائل الذى يسخر منا؟!

هل يريد أن يعيش حياة بلا موت بلا مرض بلا شيخوخة بلا نقص بلا عجز بلا قيود بلا أحزان بلا آلام.

هل يطلب كمالا مطلقا؟!

ولكن الكمال المطلق لله.



والكامل واحد لا يتعدد . . ولماذا يتعدد . . وماذا ينقصه ليجده فى واحد آخر غيره ؟ !

معنى هذا أن صاحبنا لن يرضيه إلا أن يكون هو الله ذاته وهو التطاول بعينه .

ودعونا نسخر منه بدورنا . . هو وأمثاله ممن لا يعجبهم شيء .

هؤلاء الذين يريدونها جنة . .

ماذا فعلوا ليستحقوها جنة؟

وماذا قدم صاحبنا للإنسانية ليجعل من نفسه الله الواحد القهار الذى يقول للشيء كن فيكون .

إن جدتى أكثر ذكاء من الأستاذ الدكتور المتخرج فى فرنسا حينما تقول فى بساطة :

« خير من الله شر من نفوسنا » .

إنها كلمات قليلة ولكنها تلخيص أمين للمشكلة كلها . .

فالله أرسل الرياح وأجرى النهر ولكن ربان السفينة الجشع ملأ سفينته بالناس والبضائع بأكثر مما تحتمل فغرقت فمضى يسب الله والقدر . . وما ذنب الله ؟ ! . . الله أرسل الرياح رخاء وأجرى النهر خيرا . . ولكن جشع النفوس وطمعها هو الذى قلب هذا الخير شرا .

ما أصدقها من كلمات جميلة طيبة .

« خير من الله شر من نفوسنا » .

الفصل الرابع
وما ذنب الذى لم يصله القرآن؟

هرش صاحبنا الدكتور رأسه ..

كان من الواضح أنه يبحث لى فى الدكتوراه عن حفرة أو مطب يدق عنقى فيه.. ثم قال فى هدوء وهو يرتب كلماته:

- حسنًا.. وما رأيك فى هذا الإنسان الذى لم يصله قرآن ولم ينزل عليه كتاب.. ولم يأته نبى.. ما ذنبه.. وما مصيره عندكم يوم الحساب.. مثل اسكيمو فى أقاصى القطبين.. أو زنجى فى الغابات.. ماذا يكون حظه بين يدى إلهكم يوم القيامة؟.

- قلت له:

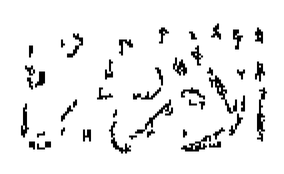
- دعنى أصحح معلوماتك أولا.. فقد بنيت أسئلتك على مقدمة خاطئة.. فالله أخبرنا بأنه لم يحرم أحدًا من رحمته ووحيه وكلماته وآياته.

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٤)

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ (النحل: ٣٦)

والرسل الذين جاء ذكرهم فى القرآن ليسوا كل الرسل..

وإنما هناك آلاف غيرهم لا نعلم عنهم شيئًا.. والله يقول لنبيه عن الرسل:



﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾

(غافر : ٧٨)

والله يوحى إلى كل شىء حتى النحل.

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (النحل : ٦٨)

وقد يكون الوحى كتابًا يلقيه جبريل.. وقد يكون نورًا يلقيه الله فى قلب العبد.. وقد يكون انشراحًا فى الصدر.. وقد يكون حكمة وقد يكون حقيقة وقد يكون فهمًا وقد يكون خشوعًا ورهبة وتقوى.

وما من أحد يرهف قلبه ويرهف سمعه إلا ويتلقى من الله فضلًا.

أما الذين يصمون آذانهم وقلوبهم فلا تنفعهم كتب ولا رسل ولا معجزات ولو كثرت.

والله قال إنه يختص برحمته من يشاء.. وأنه لا يسأل عما يفعل.

وقد يريد الله لحكمة يعلمها أن ينذر أحدًا وأن يعذر آخر فيقبل منه أهون الإيمان.

ومن يدرينا.. ربما كانت مجرد لفتة من ذلك الزنجى البدائى إلى السماء فى رهبة هى عند الله منجية ومقبولة أكثر من صلاتنا.



على أن القراءة المتأملة لأديان هؤلاء الزنوج البدائيين تدل على أنه كان لهم رسل ورسالات سماوية مثل رسالاتنا.

في قبيلة الماو ماو مثلًا نقرأ أنهم يؤمنون بإله يسمونه «موجابي» ويصفونه بأنه واحد أحد لم يلد ولم يولد وليس له كفو ولا شبيه.. وأنه لا يُرى ولا يُعرف إلا من آثاره وأفعاله.. وأنه خالق رزاق وهاب رحيم يشفي المريض وينجد المأزوم وينزل المطر ويسمع الدعاء ويصفونه بأن البرق خنجره والرعد وقع خطاه.

أليس هذا الـ«موجابي» هو إلهنا بعينه.. ومن أين جاءهم هذا العلم إلا أن يكون في تاريخهم رسول ومبلغ جاء به.. ثم تقادم عليه العهد كالمعتاد فدخلت الخرافات والشعوذات فشوهت هذا النقاء الديني.

وفي قبيلة نيام نيام نقرأ أنهم يؤمنون بإله واحد يسمونه «مبولي» ويقولون إن كل شيء في الغابة يتحرك بإرادة «مبولي» وإنه يسلط الصواعق على الأشرار من البشر.. ويكافئ الأخيار بالرزق والبركة والأمان.

وفي قبيلة الشيلوك يؤمنون بإله واحد يسمونه «جوك» ويصفونه بأنه خفي وظاهر.. وأنه في السماء وفي كل مكان وأنه خالق كل شيء.



وفى قبيلة الدنكا يؤمنون بإله واحد يسمونه «نيالاك» وهى كلمة ترجمتها الحرفية.. الذى فى السماء.. أو الأعلى.

ماذا نسمى هذه العقائد سوى إسلام.

إن هى إلا رسالات كان لها فى تاريخ هؤلاء الأقوام رسل.

إن الدين لواحد.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٦٢)

حتى الصابئون الذين قدّسوا النجوم على أنها آية من آيات الله وآمنوا بالله الواحد وبالآخرة والبعث والحساب وعملوا الصالحات فلهم أجرهم عند ربهم.

ومعلوم أن رحمة الله تتفاوت.

وهناك من يولد أعمى وهناك من يولد مبصرا وهناك من عاش أيام موسى ورآه رأى العين وهو يشق البحر بعصاه.. وهناك من عاش أيام المسيح ورآه يحيي الموتى.. أما نحن فلا نعلم عن هذه الآيات إلا سمعًا.. وليس الخبر كالعيان.. وليس من رأى كمن سمع.

ومع ذلك فالإيمان وعدمه ليس رهنًا بالمعجزات.



والمكابرون المعاندون يرون العجب من أنبيائهم فلا يزيد قولهم على أن هذا «سحر مفترى».

ولا شك أن صاحبنا الدكتور القادم من فرنسا قد بلغه من الكتب ثلاثة.. توراة وإنجيل وقرآن وبلغته.. فلم تزده هذه الكتب إلا إغراقًا فى الجدل.. وحتى يهرب من الموقف كله أحاله على شخص مجهول فى الغابات لم ينزل عليه كتاب.. وراح يسألنا.. وما بالكم بهذا الرجل الذى لم يصله قرآن ولم ينزل عليه كتاب.. ملتمسًا بذلك ثغرة فى العدل الإلهى أو موهمًا نفسه بأن المسألة كلها عبث.

وهو لذلك يسألنا «ولماذا تتفاوت رحمة الله».. لماذا يشهد الله واحدًا على آياته.. ولا يدرى آخر بتلك الآيات إلا سمعًا.

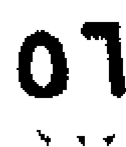
ونحن نقول إنها قد لا تكون رحمة بل نقمة ألم يقل الله لأتباع المسيح الذين طلبوا نزول مائدة من السماء محذرًا:

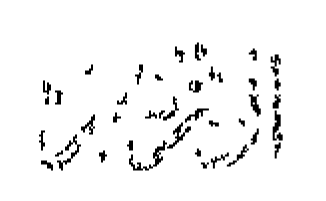
﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة: ١١٥)

ذلك لأنه مع نزول المعجزات يأتى دائمًا تشديد العذاب لمن يكفر.

وطوبى لمن آمن بالسماع بدون أن يرى معجزة.

والويل للذين شاهدوا ولم يؤمنوا.





فالقــرآن فى يدك حجة عليك ونذير.. ويوم الحســاب يصبح نقمة لا رحمة.

وعدم إقامة هذه الحجة البينة على الإسـكيمو ساكن القطبين قـد يكون إعفـاء وتخفيفًا ورحمـة ومغفرة يوم الحســاب.. وقد تكون لفتة إلى الســماء من هذا الإسكيمو الجاهل ذات ساعة فى عمره.. عند الله كافية لقبوله مؤمنًا مخلصًا.

أما لماذا يرحم الله واحدًا أكثر مما يرحم آخر فهو أمر يؤسسه الله على علمه بالقلوب.

﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾
(الفتح: ١٨)

وعلــم الله بنــا وبقلوبنــا يمتد إلى مــا قبل نزولنا فــى الأرحام حينما كنا عنده نفوسًا نورانية حول عرشه.. فمنا من التف حول نــوره.. ومنــا من انصرف عنـه مســتمتعًا بالملكــوت وغافلًا عن جمال خالقه.. فاســتحق الرتبة الدنيا من ذلك اليوم وســبق عليه القول.. هذا كلام أهل المشاهدة.

وما نراه من تاريخنا القصير فى الدنيا ليس كل شىء..

ومعرفة الحكمة من كل ألم وحرمان أمر لا يعلمه إلا العليم.

والذى يســألنى.. لماذا خلق الله الخنزيــر خنزيرًا.. لا أملك إلا أن أجيبه بأن الله اختار له ثوبًا خنزيريًا لأن نفسه خنزيرية وأن خلقه هكذا حق وعدل.

وكل ما نرى حولنا من استحقاقات هى عدل لكن معرفة الحكمة الكلية وإماطة اللثام عن هذا العدل أمر ليس فى مقدور كل واحد.

ولعل لهذا السبب هناك آخرة.. ويوم تنصب فيه الموازين وينبئنا العليم بكل ما اختلفنا فيه.

ومع هذا فسوف أريحك بالكلمة الفصل.. فقد قال الله فى كتابه أنه لن يعذب إلا من أنذرهم بالرسل:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٥)

هل أرحت واسترحت.

ثم دعنى أقول لك يا صاحبى:

إن أعجب ما فى سؤالك أن ظاهره يوهم بالإيمان والإشفاق على الزنجى المسكين الذى فاته ما فى القرآن من نور ورحمة وهدى.. مع أن حقيقتك هى الكفر بالقرآن وبنوره ورحمته وهداه.. فسؤالك أقرب ما يكون إلى الاستدراج والمخادعة وفيه مناقضة للنفس هى «اللكاعة» بعينها.. فأنت تحاول أن تقيم علينا حجة هى عندك ليس لها أى حجة.

ألا ترى معى يا صاحبى أن جهاز المنطق عندك فى حاجة إلى إصلاح.

الفصل الخامس

الجنــة والنــار

كان صديقنا الدكتور واثقا من نفسه كل الثقة هذه المرة وهو يلوك الكلمات ببطء ليلقى بالقنبلة.

- كيــف يعذبنا الله وهــو الرحمن الرحيم علــى ذنب محدود فى الزمن بعذاب لا محدود فى الأبد ﴿ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾

(التغابن: ١٠)

ومن نحن وماذا نساوى بالنسبة لعظمة الله حتى ينتقم منا هذا الانتقام..

وما الإنسان إلا ذرة أو هباءة فى الكون وهو بالنسبة لجلال الله أهون من ذلك بكثير.. بل هو اللاشىء بعينه.

ونحن نصحح معلومات الدكتور فنقول.

أولا: إننا لســنا ذرة ولا هباءة فى الكون.. وإن شــأننا عند الله ليس هينا بل عظيما..

ألم ينفخ فينا من روحه..

ألم يُسجد لنا ملائكته..

ألم يعدنا بميراث السماوات والأرض ويقول عنا :

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾

(الإسراء: ٧٠)

إن فينا إذا من روح الله .

ونحن بالنسبة للكون لسنا ذرة ولا هباءة..

إننا نبدو بالنظر إلى أجسادنا كذرة أو هباءة بالنسبة للكون الفسيح الواسع.

ولكن ألا نحتوى على هذا الكون ونستوعبه بعقلنا وندرك قوانينه وأفلاكه ونرسم لكل كوكب مداره..

ثم ينزل رائد الفضاء على القمر فيكتشف أن كل ما استوعبناه بعقلنا على الأرض كان صحيحا..

وكل ما رسمناه كان دقيقا.

ألا يدل هذا على أننا بالنظر إلى روحنا أكبر من الكون وأننا نحتوى عليه وأن الشاعر كان على حق حينما خاطب الإنسان قائلا :

وتحسب أنك جرم صغير

وفيك انطوى العالم الأكبر

وأن الإنسان كما يقول الصوفية هو الكتاب الجامع والكون صفحاته .

إذا الإنسان عظيم الشأن كبير الخطر.

وهو من روح الله.

وأعماله تستوجب المحاسبة.



أمـا عـن الذنب المحدود فـى الزمان الذى يحاسـبنا الله عليه بعذاب لا محدود فى الأبد . .

فمغالطة أخرى وقع فيها الدكتور العزيز الواثق من نفسه .

فالله يقول عن هؤلاء المخلدين فى النار حينما يطلبون العودة إلى الدنيا ليعملوا غير ما عملوا . .

يقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (الأنعام : ٢٨)

أى أن ذنبهــم ليس ذنبا محدودا فى الزمان بل هو خصلة ثابتة سوف تتكرر فى كل زمان . .

ولو ردوا لعادوا إلى ذنبهم وإنهم لكاذبون .

هــى إذن صفــة مؤبــدة فى النفس وليســت سـقطة عارضة فى ظرف عارض فى الدنيا .

وهو يقول عنهم فى مكان آخر :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (المجادلة : ١٨)

هنا لون آخر من الإصرار والتحدى يصل إلى أنهم يواجهون الله بالكذب والحلف الكاذب وهم بين يديه يوم الموقف العظيم يوم ترفع الحجب وينكشف الغطاء . .

وهذا غاية الجبروت والصلف.

ولسنا هنا أمام ذنب محدود فى الزمان . بل أمام ذنب مستمر فى الأبد وبعد أن يطوى الزمان وكل زمان..

نحن هنا أمام نفس تحمل معها شرها الأبدى.

ومن هنا كان تأبيد العذاب لهذه النفس عدلا.

ولهذا تقول عنهم الآية فى صراحة :

﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة: ١٦٧)

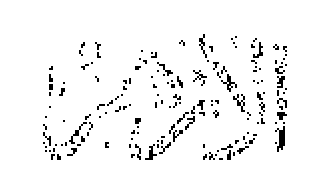
ويقول ابن عربى :

إن الرحمة بالنسبة لهؤلاء أنهم سوف يتعودون على النار.. وتصبح تلك النار فى الآباد المؤبدة بيئتهم الملائمة.

ولا شك أن هناك مجانسة بين بعض النفوس المجرمة وبين النار.

فبعض تلك النفوس هى فى حقيقتها شعلة حسد وحقد وشهوة وغيرة وغل وضرام من الغضب والنقمة والثورة والمشاعر الإجرامية المحتدمة وكأنها نار بالفعل.

مثل تلك النفوس لا تستطيع أن تعيش فى سلام.. ولا تستطيع أن تحيا ساعة بدون أن تشعل حولها حربا.. وبدون أن تضرم حولها النيران.. لأن النيران هى بيئتها وطبيعتها.



ومثـل تلك النفوس يكــون قرارها فى النار هـو الحكم العدل ويكــون هذا المصير من قبيل وضع الشــىء فــى مكانه .فلو أنها أدخلت الجنة لما تذوقتها .

ألم تكن ترفض السلام فى الأرض ؟

وينبغى أن نفهم النار والجنة فى الآخرة فهما واسع الأفق . .

فالنــار فــى الآخرة ليســت شــواية . وليس ما يجـرى فيها هو الحريــق بالمعنــى الدنيــوى فــالله يقــول إن المذنبيــن فــى النار يتكلمون ويتلاعنون وإن النار فيها شجرة لها ثمر . .

هى شجرة الزقوم التى تخرج من أصل الجحيم . . كما أن فيها ماء حميما يشرب منه المعذبون .

مثل تلك النار التى فيها شجرة وفيها ماء . .

ويتكلم فيها الناس لا بد أنها نار غير النار :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ٣٨)

إنهم يتكلمون وهم فى النار وهى نار :

﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ (البقرة : ٢٤)

هذه النار إذن هى من قبيل الغيب . . وما ورد عنها إشارات .

ولا يجب أن يفهم من هذا الكلام أننا ننكر العذاب الحسي ونقول بالعذاب المعنوى..

فإن العذاب الحسى صريح لا يجوز الشك فيه ونحن نؤمن بوجوده.

وإنما نقول إن تفاصيل هذا العذاب وكيفيته.. كما أن كيفية تلك النار وأوصافها التفصيلية.. هى غيب مجهول.. فهى على ما يبدو فى الإشارات القرآنية.. نار غير النار..

كما أن أجسامنا فى تحملها لتلك النار هى غير الأجسام الترابية الهشة التى لنا الآن ...

ونفس الشىء فى الجنة.. فهى ليست سوق خضار وبلح ورمان وعنب..

وإنما تلك الأوصاف القرآنية هى مجرد إشارات وضرب أمثلة وتقريب إلى الأذهان.

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾ (محمد : ١٥)

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ﴾.. أى أننا نضرب مثلا يقرب فهم الجنة إليك ولكن الحقيقة أن التفاصيل غيب.

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة : ١٧)

﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ (آل عمران : ١٣٣)

فهى لا يمكن أن تكون مجرد حديقة.

﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾

(الواقعة : ٣٢-٣٣)

فهى إذن غير فاكهتنا المقطوعة والممنوعة.. وخمر :

﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ (الواقعة : ١٩)

فهى غير خمرنا التى تصدع الرأس وتنزف العقل.

ويقول القرآن عن أهل الجنة :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ (الأعراف : ٤٣)

ها هنا نفوس طهرت بطريقة لا نعلمها.

الجنة إذا هى الأخرى غيب وليس فى هذا الكلام أى إنكار للنعيم الحسى فنحن نؤمن بأن الجنة نعيم حسى ومعنوى معا كما أن النار عذاب حسى ومعنوى ولكن ما نريد تأكيده أن تفاصيل هذا النعيم أو العذاب وكيفياته غيب.

وأن الجنة ليست سوقا للفاكهة والخضار ولا النار فرنا لشوى اللحم.

وأن التعذيب فى الآخرة ليس تجبرا من الله على عباده وإنما هو تطهير وتعريف وتقويم ورحمة.

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ (النساء: ١٤٧)

فالأصل هو عدم العذاب.

والله لا يعذب العارف المؤمن وإنما ينصب عذابه على الجاحد المنكر الذى فشلت معه كل وسائل الهداية والتعريف والتفهيم.

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (السجدة: ٢١)

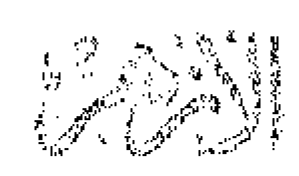
سنة الله أن يذيق هؤلاء من العذاب الأصغر فى الدنيا لإيقاظهم من غفلتهم ولإزعاجهم من هذا الصمم والسبات.. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

فإذا لم تفلح كل الوسائل..

وظل المنكر على إنكاره لم يبق إلا مواجهته بالعذاب الحق لتعريفه..

والتعريف بالحق هو عين الرحمة..

ولو أن الله تركهم على عماهم وجهلهم وأهملهم لكان فى حقه ظلما..



سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا.. فالعرض على النار بالنسبة لهؤلاء الجهال.. عناية.

وكل أفعال الله رحمة..

يرحم الجاهل بالجحيم تأديبا وتعليما.

ويرحم العارف بالجنة فضلا وكرامة.

﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾
(الأعراف: ١٥٦)

فجعل رحمته تسع كل شيء حتى العذاب.

ثم دعونا نسأل الدكتور:

أيكون الله أكثر عدلا فى نظره لو أنه ساوى بين الظالمين والمظلومين وبين السفاحين وضحاياهم فقدم للكل حفلة شاى فى الآخرة.

وهل العدل فى نظر الدكتور أن يستوى الأبيض والأسود.

وللذين يستبعدون على الله أن يعذب نقول: ألا يعذبنا الله بالفعل فى دنيانا؟..

وماذا تكون الشيخوخة والمرض والسرطان إلا العذاب بعينه.

ومن خالق الميكروب..؟!!

أليست جميعها إنذارات بأننا أمام إله يمكن أن يعذب.

الفصل السادس

هل الدين أفيون ..؟

قال لى صاحبى الدكتور وهو يغمز بعينيه :

وما رأيك فى الذين يقولون إن الدين أفيون . . . ! !

وإنه يخدر الفقراء والمظلومين ليناموا على ظلمهم وفقرهم ويحلموا بالجنة والحور العين . .

فى حين يثبت الأغنياء على غناهم باعتبار أنه حق . .

وأن الله خلق الناس درجات . . . ؟ .

وما رأيك فى الذين يقولون إن الدين لم ينزل من عند الله . .

وإنما هو طلع من الأرض من الظروف والدواعى الاجتماعية ليكون سلاحًا لطبقة على طبقة . . ؟

وهو يشير بذلك إلى الماديين وأفكارهم . .

قلت :

ليس أبعد من الخطأ القائل بأن الدين أفيون . . فالدين فى حقيقته أعباء وتكاليف وتبعات . .

وليس تخفيفًا وتحللًا . . وبالتالى ليس مهربًا من المسئوليات وليس أفيونا . .

ودينا عمل وليس كسلاً . .



﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ (التوبة: ١٠٥)

ونحن نقول بالتوكل وليس التواكل..

والتوكل يقتضى عندنا العزم واستفراغ الوسع..

وبذل غاية الطاقة والحيلة.

ثم التسليم بعد ذلك لقضاء الله وحكمه.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

العزم أولًا..

والنبى يقول لمن أراد أن يترك ناقته سائبة توكلًا على حفظ الله: «اعقلها وتوكل».

أى: ابذل وسعك أولا فثبتها فى عقالها ثم توكل..

والدين صحو وانتباه ويقظة. ومحاسبة للنفس ومراقبة للضمير..

فى كل فعل وفى كل كلمة وكل خاطر. وليس هذا حال آكل الأفيون.

إنما آكل الأفيون الحقيقى هو المادى الذى ينكر الدين هربًا من تبعاته ومسئولياته.

ويتصور أن لحظته ملكه. وأنه لا حسيب ولا رقيب ولا بعث بعد الموت..



فيفعل ما يخطر على باله . وأين هذا الرجل من المتدين المسلم الذى يعتبر نفسه مسئولاً عن سابع جار..

وإذا جاع فرد فى أمته أو ضربت دابة عاتب نفسه بأنه لم يقم بواجب الدين فى عنقه..

وليس صحيحًا أن ديننا خرج من الأرض.. من الظروف والدواعى الاجتماعية..

ليكون سلاحًا لطبقة على طبقة وتثبيتًا لغنى الأغنياء وفقر الفقراء..

والعكس هو الصحيح...

فالإسلام جاء ثورة على الأغنياء والكانزين المال والمستغلين الظالمين..

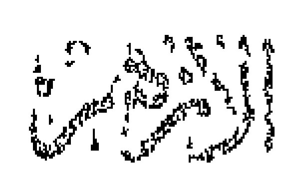
فأمر صراحة بألا يكون المال دولة بين الأغنياء يحتكرونه ويتداولونه بينهم..

وإنما يكون حقًا للكل..

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة : ٣٤)

والإنفاق يبدأ من زكاة إجبارية (٢,٥) فى المائة..

ثم يتصاعد اختياريًا إلى كل ما فى الجيب وكل ما فى اليد.



فلا تبقى لنفسك إلا خبزك.. كفافك..

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ (البقرة : ٢١٩)

والعفو هو كل ما زاد على الكفاف والحاجة..

وبهذا جمع الإسلام بين التكليف الجبرى القانونى والتكليف الاختيارى القائم على الضمير..

وهذا أكرم للانسان من نزع أملاكه بالقهر والمصادرة..

ووصل الإنفاق إلى ما فوق التسعين فى المائة بدون إرهاق..

ولم يأت الإسلام ليثبت ظلم الظالمين. بل جاء ثورة صريحة على كل الظالمين..

وجاء سيفًا وحربا على رقاب الطواغيت والمستبدين..

أما التهمة التى يسوقها الماديون بأن الدين رجعى وطبقى بدليل الآيات:

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾ (النحل: ٧١)

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ (الزخرف: ٣٢)

فنحن نرد بأن هذه الآيات تنطبق على لندن وباريس وبرلين وموسكو..



بمثـل ما تنطبق على القاهرة ودمشـق وجدة، وإذا مشـينا فى شـوارع موسكو فسوف نجد من يسـير على رجليه، ومن يركب بسـكليت.. ومن يركب عربة موسـكوفتش، ومن يركب عربة زيم فاخرة.

ومـاذا يكـون هـذا إلا التفاضل في الـرزق بعينـه والدرجات والرتب الاقتصادية..

والتفاوت بين الناس حقيقة جوهرية..

ولم تستطع الشيوعية أن تلغى التفاوت..

ولم يقل حتى غلاة المادية والفوضوية بالمساواة..

والمساواة غير ممكنة فكيف نساوى بين غير متساويين..

النـاس يولدون مـن لحظة الميلاد غير متسـاوين فـى الذكاء والقوة والجمال والمواهب..

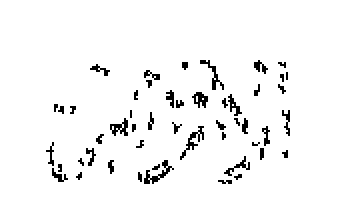
يولدون درجات فى كل شيء..

وأقصى ما طمعت فيه المذاهب الاقتصادية هي المسـاواة فى الفرص وليس المساواة بين الناس..

أن يلقـى كل واحـد نفس الفرصة فى التعليـم والعلاج والحد الأدنى للمعيشة..

وهو نفس ما تحض عليه الأديان..





أما إلغاء الدرجات وإلغاء التفاوت فهو الظلم بعينه والأمر الذى ينافى الطبيعة..

والطبيعة تقوم كلها على أساس التفاضل والتفاوت والتنوع فى ثمار الأرض وفى البهائم وفى الناس..

فى القطن نجد طويل التيلة. وقصير التيلة، وجيزة ٧، وسكلاريدس وفولى جود فير.. فى البلح نجد الزغلول والسمانى والحيانى.. وفى العنب نجد البناتى والفيومى والأزمرلى.

وفى الحيوان والإنسان نجد الرتب والدرجات والتفاوت أكثر..

هذا هو قانون الوجود كله.. التفاضل..

وحكمة هذا القانون واضحة. فلو كان جميع الناس يولدون بخلقة واحدة وقالب واحد ونسخة واحدة..

لما كان هناك داع لميلادهم أصلا.

وكان يكفى أن نأتى بنسخة واحدة فتغنى عن الكل..

وكذلك الحال فى كل شىء..

ولانتهى الأمر إلى فقر الطبيعة وإفلاسها..

وإنما غنى الطبيعة وخصبها لايظهر إلا بالتنوع فى ثمارها وغلاتها والتفاوت فى ألوانها وأصنافها..



ومع ذلك فالدين لم يسكت على هذا التفاوت بين الأغنياء والفقراء..

بل أمر بتصحيح الأوضاع وجعل للفقير نصيبًا في مال الغني.

وقال إن هذا التفاوت فتنة وامتحان:

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾

(الفرقان: ٢٠)

سوف نرى ماذا يفعل القوى بقوته.

هل ينجد بها الضعفاء أو يضرب ويقتل ويكون جبارًا فى الأرض...؟

وسوف نرى ماذا يفعل الغنى بغناه..

هل يطغى ويسرف..؟ أو يعطف ويحسن..؟

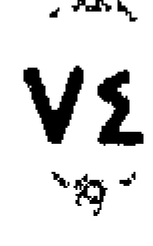
وسوف نرى ماذا يفعل الفقير بفقره..

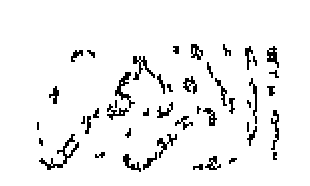
هل يحسد ويحقد ويسرق ويختلس؟!

أو يعمل ويكد ويجتهد ليرفع مستوى معيشته بالشرع والعدل؟!

وقد أمر الدين بالعدل وتصحيح الأوضاع بالمساواة بين الفرص..

وهدد بعذاب الآخرة وقال بأن الآخرة ستكون أيضًا درجات أكثر تفاوتًا لتصحيح ما لم يجر تصحيحه فى الأرض.





﴿ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴾ (الإسراء: ٢١)

وللذين يتهمون الإسلام بالرجعية السياسية نقول إن الإسلام أتى بأكثر الشرائع تقدمية في نظم الحكم.

احترام الفرد في الإسلام بلغ الذروة.. وسبق ميثاق حقوق الإنسان وتفوق عليه.. فماذا يساوي الفرد الواحد في الإسلام؟ إنه يساوي الإنسانية كلها.

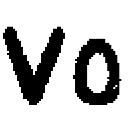
﴿ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ ﴾ (المائدة: ٣٢)

لا تغني المنجزات ولا الإصلاحات المادية ولا التعمير ولا السدود ولا المصانع.. إذا قتل الحاكم فردا واحدا ظلما في سبيل هذا الإصلاح، فإنه يكون قد قتل الناس جميعا.

ذروة في احترام الفرد لم يصل إليها مذهب سياسي قديم أو جديد.. فالفرد في الإسلام له قيمة مطلقة في حين أن قيمته نسبية في كل المذاهب السياسية.. والفرد في الإسلام آمن في بيته.. وفي أسراره «لا تجسس ولا غيبة» آمن في ماله ورزقه وملكيته وحريته.

كل شيء حتى التحية حتى إفساح المجلس حتى الكلمة الطيبة لها مكان في القرآن.

وقد نهى القرآن عن التجبر والطغيان والانفراد بالحكم.



وقال الله للنبي ﷺ «وهو من هو في كماله وصلاحيته».

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ (ق: ٤٥)

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾
(الغاشية: ٢١-٢٢)

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠)

ونهى عن عبادة الحاكم وتأليه العظيم:

﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾
(آل عمران: ٦٤)

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ (الإسراء: ٢٣)

ونهى عن الغوغائية وتملق الدهماء والسوقة والجرى وراء الأغلبية المضللة وقال:

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: ٢١)

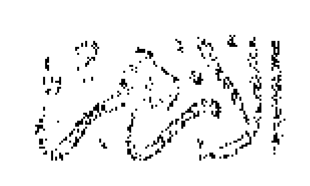
﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٦٣)

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (غافر: ٥٩)

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾
(الأنعام: ١١٦)

﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (الفرقان: ٤٤)





ونهى عن العنصرية والعرقية :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات : ١٣)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (الأعراف : ١٨٩)

وبالمعنى العلمى كان الإسلام تركيبا جدليا جامعا بين مادية اليهودية وروحانية المسيحية، بين العدل الصارم الجاف الذى يقول : السن بالسن والعين بالعين. وبين المحبة والتسامح المتطرف الذى يقول : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر.

وجاء القرآن وسطا بين التوراة التى حرفت حتى أصبحت كتابا ماديا ليس فيه حرف واحد عن الآخرة، وبين الإنجيل الذى مال إلى رهبانية تامة، ونادى القرآن بناموس الرحمة الجامع بين العدل والمحبة فقال بشرعية الدفاع عن النفس ولكنه فضل العفو والصفح والمغفرة :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

(الشورى : ٤٣)

وإذا كانت الرأسمالية أطلقت للفرد حرية الكسب إلى درجة استغلال الآخرين.. وإذا كانت الشيوعية سحقت هذه الحرية تماما.. فإن الإسلام قدم الحل الوسط.



﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾
(النساء: ٣٢)

الفرد حر في الكسب ولكن ليس له أن يأخذ ثمرة أرباحه كلها.. وإنما له فيها نصيب.. وللفقير نصيب يؤخذ زكاة وإنفاقا من ٢,٥ في المائة جبرًا إلى ٩٠٪ وأكثر اختيارا.. وهذا النصيب ليس تصدقا وتفضلا وإنما هو حق الله في الربح.. وبهذه المعادلة الجميلة حفظ الإسلام للفرد حريته وللفقير حقه.

ولهذا أصاب القرآن كل الصواب حينما خاطب أمة الإسلام قائلا:

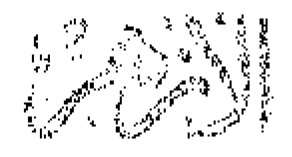
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣)

فقد اختار الإسلام الوسط العدل في كل شيء.

وهو ليس الوسط الحسابي وإنما الوسط الجدلي أو هو التركيب الذي يجمع النقيضين «اليمين واليسار» ويتجاوزهما ويزيد عليهما.. ولذلك ليس في الإسلام يمين ويسار وإنما فيه «صراط» الاعتدال الوسط الذي نسميه الصراط المستقيم من خرج عنه باليمين أو اليسار فقد انحرف.

ولم يقيدنا القرآن بدستور سياسي محدد أو منهج مفصل للحكم لعلم الله بأن الظروف تتغير بما يقتضي الاجتهاد في وضع دساتير متغيرة في الأزمنة المتغيرة، وحتى يكون الباب مفتوحا أمام





المسلمين للأخذ والعطاء من المعارف المتاحة فى كل عصر دون انغلاق على دستور بعينه.

ولهذا اكتفى القرآن بهذه التوصيات السياسية العامة السالفة كخصائص للحكم الأمثل.. ولم يكبلنا بنظرية وهذا سر من أسرار إعجازه وتفوقه وليس فقرا ولا نقصا فيه.

وتلك لمسة أخرى من تقدمية القرآن التى سبقت كل التقدميات.

ونرد على القائلين بأن الدين جمود وتحجر.. بأن الإسلام لم يكن أبدا دين تجمد وتحجر وإنما كان دائما وأبدا دين نظر وفكر وتطوير وتغيير بدليل آياته الصريحة.

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾

(العنكبوت: ٢٠)

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ (الطارق: ٥-٧)

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾

(الغاشية: ١٧-٢٠)

أوامـر صريحـة بالنظر فى خلق الإنسـان وفى خلـق الحيوان وفـى خلق الجبال وفـى طبقات الأرض وفى السـماء وأفلاكها.. وهـى نظرات تضم كل مـا نعنيه الآن بعلـم الجيولوجيا والفلك والتشريح والفسيولوجيا والبيولوجيا وعلم الأجنة.

أوامر صريحة بالسـير فى الأرض وجمع الشـواهد واسـتنباط الأحـكام والقوانين ومعرفة كيف بدأ الخلق.. وهو ما نعرفه الآن بعلوم التطور.

ولا خوف من الخطأ.

فالإسـلام يكافئ الذى يجتهـد ويخطئ بأجـر والذى يجتهد ويصيب بأجرين.

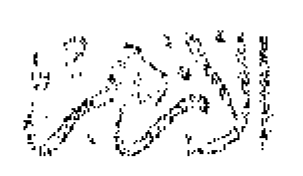
وليـس صحيحا ما يقال من أننا تخلفنـا بالدين وتقدم الغرب بالإلحاد.. والحق أننا تخلفنا حينما هجرنا أوامر ديننا.

وحينما كان المسـلمون يأتمرون بهذه الآيات حقا كان هناك تقدم وكانـت هناك دولة من المحيط إلى الخليج وعلماء مثل ابن سينا[10] فى الطب وابن رشد[11] فى الفلسفة وابن الهيثم[12] فى

(١٠) ابن سـينا ـ أبو على [٣٧٠-٤٢٨هـ- ٩٨٠-١٠٣٧م] من كبار فلاسـفة الإسـلام -يلقب بالشـيخ الرئيس- من آثاره [الشـفاء] و[النجاة] و[الإشـارات والتنبيهات] و[الحكمة المشرقية].

(١١) ابن رشد ـ أبو الوليد [٥٢٠-٥٩٥هـ- ١١٢٦-١١٩٨م] فيلسوف وفقيه ومتكلم وطبيـب، وهو الشـارح الأكبر لأرسـطو، من آثاره [تهافـت التهافت] و[مناهـج الأدلة] و[فصل المقال] و[الكليات فى الطب].

(١٢) ابـن الهيثـم ـ الحسـن [٣٥٤-٤٣٠هـ/ ٩٦٥-١٠٣٩م] أحد فلاسـفة الإسـلام وعلمائه، وهو واضع أسس علم المناظر والبصريات.



الرياضيات وابن النفيس(١٣) فى التشريح وجابر بن حيان(١٤) فى الكيمياء .

وكانت الدنيا تأخذ عنا علومنا . . وما زالت مجمعات النجوم وأبراجها تحتفظ إلى الآن بأسمائها العربية فى المعاجم الأوروبية . . وما زالوا يسمون جهاز التقطير بالفرنسية imbiquer ومنه الفعل من كلمة أمبيق العربية . imbiquer ولم يتقدم الغرب بالإلحاد بل بالعلم .

وإنما وقع الخلط مما حدث فى العصور الوسطى من طغيان الكنيسة ومحاكم التفتيش وحجرها على العلم والعلماء وما حدث من سجن غاليليو(١٥) وحرق جيوردانو برونو(١٦) .

حينما حكمت الكنيسة وانحرف بها البابوات عن أهدافها النبيلة فكانت عنصر تأخر . . فتصور النقاد السطحيون أن هذا ينسحب أيضا على الإسلام وهو خطأ . . فالإسلام ليس فيه بابوية ولا كهنوت . .

---

(١٣) ابن النفيس ـ على [٦٠٦- ٦٨٧هـ- ١٢١٠- ١٢٨٨م] طبيب وفيلسوف، رأس أطباء مصر فى عصره، من آثاره [شرح قانون ابن سينا] و[موجز القانون].

(١٤) جابر بن حيان [٢٠٠هـ- ٨١٥م] واضع أسس علم الكيمياء، ومن آثاره: [أسرار الكيمياء] و[أصول الكيمياء] و[علم الهيئة]، وعلى مؤلفاته اعتمد العلم الغربى فى النهضة الحديثة.

(١٥) غاليليو [١٥٦٤- ١٦٤٢م] من مشاهير علماء الفيزياء والفلك، اكتشف حركة دوران الأرض حول الشمس، أدانته الكنيسة ١٦٣٣م، ومن مخترعاته: ميزان الحرارة والمنظار الفلكي.

(١٦) جيور دانو برونو [١٥٤٨-١٦٠٠م] فيلسوف إيطالي، انتقد فلسفة أرسطو، وتمرد على عقيدة الثالوث والتجسد، ودعا إلى الاحتكام للبداهة -الفطرة- لمعرفة الحق، أحرقته الكنيسة حيا، فذهب شهيد الحقيقة العلمية.



والله لم يقم بينه وبين المسلمين أوصياء ولا وسطاء.

وحينما حكم الإسلام بالفعل كان عنصر تقدم كما شرحنا وكما يقول التاريخ مكذبا هذه المزاعم السطحية.

وآيات القرآن الصريحة تحض على العلم وتأمر بالعلم ولا تقيم بين العلم والدين أى تناقض:

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه: ١١٤)

﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩)

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾

(آل عمران: ١٨)

جعل الله الملائكة وأولى العلم فى الآية مقترنين بشرف اسمه.

وأول آية فى القران وأول كلمة كانت «اقرأ» والعلماء فى القرآن موعودون بأرفع الدرجات:

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾

(المجادلة: ١١)

وتتكرر كلمة العلم ومشتقاته فى القرآن نحوا من ثمانمائة وخمسين مرة.

فكيف يتكلم بعد هذا متكلم عن تناقض بين الدين والعلم أو حجر من الدين على العلم.

والنظر في الدين وتطوير فهمه مطلوب، وتاريخ الإسلام كله حركات إحياء وتطوير.. والقرآن بريء من تهمة التحجير على الناس وكل شيء في ديننا يقبل التطوير.. ما عدا جوهر العقيدة وصلب الشريعة.. لأن الله واحد ولن يتطور إلى اثنين أو ثلاثة.. هذا أمر مطلق.. وكذلك الشر شر والخير خير.. لن يصبح القتل فضيلة ولا السرقة حسنة ولا الكذب حلية يتحلى بها الصالحون.

وفيما عدا ذلك فالدين مفتوح للفكر والاجتهاد والإضافة والتطوير.

وجوهر الإسلام عقلاني منطقي يقبل الجدل والحوار ويحض على استخدام العقل والمنطق.

وفي أكثر من مكان وفي أكثر من صفحة في القرآن نعثر على التساؤل.. «أفلا يعقلون».. «أفلا يفقهون» وأهل الدين عندنا هم «أولو الألباب».

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾
(الأنفال: ٢٢)

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (الحج: ٤٦)

احترام العقل في لب وصميم الديانة.

والإيجابية عصبها والثورة روحها.

لم يكن الإسلام ـ قط ـ خانعا ولا سلبيا .

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾ (البقرة: ١٩٠)

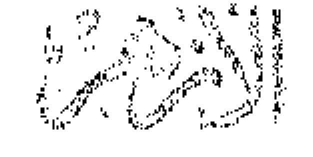
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾ (الصف : ٤)

والجهاد بالنفس والمال والأولاد . . والقتال والثبات وعدم النكوص على الأعقاب ، ومواجهة اليأس والمصابرة والمرابطة فى صلب ديننا .

فكيف يمكن لدين بهذه المرونة والعقلانية والعلمية والإيجابية والثورة أن يتهم بالتحجر والجمود إلا من صديق عزيز مثل الدكتور القادم من فرنسا لا يعرف من أوليات دينه شيئا ولم يقرأ فى قرآنه حرفا .

***





الفصل السابع
وحكاية الإسلام مع المرأة

قال صديقي الدكتور :

- ألا توافقني على أن الإسلام كان موقفه رجعيا من المرأة؟

وبدأ يعد على أصابعه

- حكاية تعدد الزوجات وبقاء المرأة في البيت.. والحجاب والطلاق في يد الرجل.. والضرب والهجر في المضاجع.. وحكاية ما ملكت أيمانكم.. وحكاية الرجال قوامون على النساء.. ونصيب الرجل المضاعف في الميراث.

قلت له وأنا أستجمع نفسى :

التهم هذه المرة كثيرة.. والكلام فيها يطول.. ولنبدأ من البداية.. من قبل الإسلام.. وأظنك تعرف تماما أن الإسلام جاء على الجاهلية، والبنت التى تولد كان نصيبها الوأد والدفن فى الرمال، والرجل يتزوج العشرة والعشرين ويكره جواريه على البغاء ويقبض الثمن.. فكان ما جاء به الإسلام من إباحة الزواج بأربع تقييدا وليس تعديدا.. وكان إنقاذًا للمرأة من العار والموت والاستعباد والمذلة.

وهل المرأة الآن فى أوروبا أسعد حالا فى الانحلال الشائع هناك وتعدد العشيقات الذى أصبح واقع الأمر فى أغلب الزيجات



أليس أكرم للمرأة أن تكون زوجة ثانية لمن تحب .. لها كافة حقوق الزوجة واحترامها من أن تكون عشيقة فى السر تختلس المتعة من وراء الجدران.

ومع ذلك فالإسلام جعل من التعدد إباحة شبه معطلة وذلك بأن شرط شرطا صعب التحقيق وهو العدل بين النساء.

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ (النساء : ٣)

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾

(النساء : ١٢٩)

فنفى قدرة العدل حتى عن الحريص فلم يبق إلا من هو أكثر من حريص كالأنبياء والأولياء ومن فى دربهم.

أما البقاء فى البيوت فهو أمر وارد لزوجات النبى باعتبارهن مثلا عليا.

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ (الأحزاب : ٣٣)

وهى إشارة إلى أن الوضع الأمثل للمرأة هى أن تكون أمًا وربة بيت تفرغ لبيتها ولأولادها.

ويمكن أن نتصور حال أمة نساؤها فى الشوارع والمكاتب وأطفالها فى دور الحضانة والملاجئ ..





أتكون أحسن حالا أو أمة النساء فيها أمهات وربات بيوت والأطفال فيها يتربون فى حضانة أمهاتهم والأسرة فيها متكاملة الخدمات .

الرد واضح .

ومع ذلك فالإسلام لم يمنع المقتضيات التى تدعو إلى خروج المرأة وعملها . . وقد كانت فى الإسلام فقيهات وشاعرات . . وكانت النساء يخرجن فى الحروب . . ويخرجن للعلم .

إنما توجهت الآية إلى نساء النبى كمثل عليا ، وبين المثال والممكن والواقع درجات متعددة .

وقد خرجت نساء النبى مع النبى ﷺ فى غزواته .

وينسحب على هذا الخروج لمعونة الزوج فى كفاح شريف فهو أمر لا غبار عليه .

أما الحجاب فهو لصالح المرأة .

وقد أباح الإسلام كشف الوجه واليدين وأمر بستر ما عدا ذلك .

ومعلوم أن الممنوع مرغوب وأن ستر مواطن الفتنة يزيدها جاذبية .

وبين القبائل البدائية وبسبب العرى الكامل يفتر الشوق تماما وينتهى الفضول ونرى الرجل لا يخالط زوجته إلا مرة فى الشهر وإذا حملت قاطعها سنتين .



وعلى الشواطئ في الصيف حينما يتراكم اللحم العارى المباح للعيون يفقد الجسم العريان جاذبيته وطرافته وفتنته ويصبح أمرا عاديا لا يثير الفضول .

ولا شك أنه من صالح المرأة أن تكون مرغوبة أكثر وألا تتحول إلى شيء عادى لا يثير .

أما حق الرجل في الطلاق فيقابله حق المرأة أيضا في الخلع على الطرف الآخر فيمكن للمرأة أن تطلب الطلاق بالمحكمة وتحصل عليه إذا أبدت المبررات الكافية .

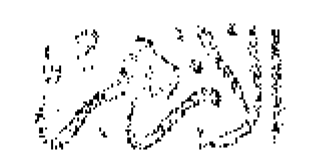
ويمكن للمرأة أن تشترط الاحتفاظ بعصمتها عند العقد .. وبذلك يكون لها حق الرجل في الطلاق .

والإسلام يعطى الزوجة حقوقا لا تحصل عليها الزوجة في أوروبا ـ فالزوجة عندنا تأخذ مهرا .. وعندهم تدفع دوطة .. والزوجة عندنا لها حق التصرف في أملاكها .. وعندهم تفقد هذا الحق بمجرد الزواج ويصبح الزوج هو القيم على أملاكها .

أما الضرب والهجر في المضاجع فهو معاملة المرأة الناشز فقط .. أما المرأة السوية فلها عند الرجل المودة والرحمة .

والضرب والهجر في المضاجع من معجزات القرآن في فهم النشوز .. وهو يتفق مع أحدث ما وصل إليه علم النفس العصرى في فهم المسلك المرضى للمرأة .





وكمـا نعلم يقسـم علـم النفس هـذا المسـلك المرضى إلى نوعين :

النوع الأول هو :

« المسـلك الخضوعى » وهو ما يسـمى فى الاصطلاح العلمى « ماسوشـزم masochism » وهـو تلك الحالـة المرضية التى تلتذ فيها المرأة بأن تضرب وتعذب وتكون الطرف الخاضع .

والنوع الثانى هو :

« المسـلك التحكمى » وهو ما يسـمى فـى الاصطلاح العلمى « سـادزم sadism » وهـو تلـك الحالة المرضية التـى تلتذ فيها المرأة بأن تتحكم وتسيطر وتتجبر وتتسلط وتوقع الأذى بالغير .

ومثـل هـذه المرأة لا حل لها سـوى انتزاع شـوكتها وكسـر سلاحها الذى تتحكم به ، وسـلاح المرأة أنوثتها وذلك بهجرها فى المضجع فلا يعود لها سلاح تتحكم به . .

أما المرأة الأخرى التى لا تجد لذتها إلا فى الخضوع والضرب فإن الضرب لها علاج . . ومن هنا كانت كلمة القرآن :

﴿ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ ﴾ (النساء : ٣٤)

إعجازا علميـا وتلخيصا فى كلمتين فيهما كل ما أتى به علم النفس فى مجلدات عن المرأة الناشز وعلاجها .



أما حكاية ﴿ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ التى أشار إليها السائل فإنها تجرنا إلى قضية الرق فى الإسلام..

اتهام المستشرقين للإسلام بأنه دعوة إلى الرق.. والحقيقة أن الإسلام لم يدع إلى الرق.. بل كان الدين الوحيد الذى دعا إلى تصفية الرق.

ولو قرأنا الإنجيل.. وما قاله بولس الرسول فى رسائله إلى أهل أفسس وما أوصى به العبيد لوجدناه يدعو العبيد دعوة صريحة إلى طاعة سادتهم كما الرب:

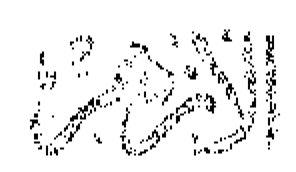
«أيها العبيد.. أطيعوا سادتكم بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما الرب».

ولم يأمر الإنجيل بتصفية الرق كنظام وإنما أقصى ما طالب به كان الأمر بالمحبة وحسن المعاملة بين العبيد وسادتهم.

وفى التوراة المتداولة كان نصيب الأحرار أسوأ من نصيب العبيد.. ومن وصايا التوراة أن البلدة التى تستسلم بلا حرب يكون حظ أهلها أن يساقوا رقيقا وأسارى والتى تدافع عن نفسها بالسيف ثم تستسلم يعرض أهلها على السلاح ويقتل شيوخها وشبابها ونساؤها وأطفالها ويذبحون تذبيحا.

كان الاسترقاق إذا حقيقة ثابتة قبل مجىء الإسلام وكانت الأديان السابقة توصى بولاء العبد لسيده.





فنزل القرآن ليكون أول كتاب سماوى يتكلم عن فك الرقاب وعتق الرقاب.

ولم يحرم القرآن الرق بالنص الصريح.. ولم يأمر بتسريح الرقيق.. لأن تسريحهم فجأة وبأمر قرآنى فى ذلك الوقت وهم مئات الآلاف بدون صناعة وبدون عمل اجتماعى وبدون توظيف يستوعبهم كان معناه كارثة اجتماعية وكان معناه خروج مئات الألوف من الشحاذين فى الطرقات يستجدون الناس ويمارسون السرقة والدعارة ليجدوا اللقمة. وهو أمر أسوأ من الرق، فكان الحل القرآنى هو قفل باب الرق ثم تصفية الموجود منه.. وكان مصدر الرق فى ذلك العصر هو استرقاق الأسرى فى الحروب فأمر القرآن بأن يطلق الأسير أو تؤخذ فيه فدية وبأن لا يؤخذ الأسرى أرقاء.

﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ (محمد : ٤)

فإما أن تمن على الأسير فتطلقه لوجه الله.. وإما أن تأخذ فيه فدية.

أما الرقيق الموجود بالفعل فتكون تصفيته بالتدريج وذلك بجعل فك الرقاب وعتق الرقاب كفارة الذنوب صغيرها وكبيرها وبهذا ينتهى الرق بالتدريج.

وإلى أن تأتى تلك النهاية فماذا تكون معاملة السيد لما ملكت يمينه.. أباح له الإسلام أن يعاشرها كزوجته.

وهـذه حكاية ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ التى أشـار إليها السـائل ولا شـك أن معاشـرة المرأة الرقيق كالزوجة كان فى تلك الأيام تكريما لا إهانة.

وينبغى ألا ننسى موقف الإسلام من العبد الرقيق وكيف جعل منه أخا بعد أن كان عبدا يداس بالقدم.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ (الأعراف: ١٨٩)

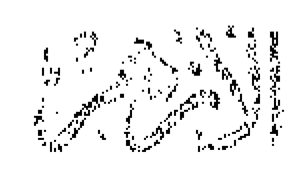
﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾

(آل عمران: ٦٤)

وقـد ضرب محمد ﷺ المثل حينما تبنـى عبدا رقيقا هو زيد ابـن حارثـة فأعتقه وجعل منه ابنـه.. ثم زوجه من الحرة سـليلة البيت الشريف زينب بنت جحش.

كل هذا ليكسر هذه العنجهية والعصبية.. وليجعل من تحرير العبيد موقفا يقتدى به.. وليقول بالفعل وبالمثال إن رسالته عتق الرقاب.

أمـا أن الرجال قوامون على النسـاء فهى حقيقة فى كل مكان فى البلاد الإسـلامية. وفى البلاد المسـيحية. وفى البلاد التى لا تعرف إلها ولا دينا.



فى موسكو الملحدة الحكام رجال من أيام لينين وستالين وخروشوف وبولجانين إلى اليوم يلتسين وبوتين ، وفى فرنسا الحكام رجال ، وفى ألمانيا الحكام رجال ، وفى كل مكان من الأرض الرجال هم الذين يحكمون ويشرعون ويخترعون ، وجميع الأنبياء كانوا رجالا ، وجميع الفلاسفة كانوا رجالا ، حتى الملحنين ـ مع أن التلحين صنعة خيال لا يحتاج إلى عضلات ـ رجال ، وكما يقول العقاد[١٧] ساخرا : حتى صنعة الطهى والحياكة والموضة وهى تخصصات نسائية تفوق فيها الرجال ثم انفردوا بها .

وهى ظواهر لا دخل للشريعة الإسلامية فيها . . فهى ظواهر عامة فى كل بقاع الدنيا حيث لا تحكم شريعة إسلامية ولا يحكم قرآن .

إنما هى حقائق . . إن الرجل قوام على المرأة بحكم الطبيعة واللياقة والحاكمية التى خصه بها الخالق .

وإذا ظهرت وزيرة أو زعيمة أو حاكمة فإنها تكون الطرافة التى تروى أخبارها والاستثناء الذى يؤكد القاعدة .

---

(١٧) العقاد ـ عباس محمود [١٣٠٦-١٣٨٤هـ - ١٨٨٩-١٩٦٤م] من كبار مفكرى القرن العشرين ، من آثاره [العبقريات] و[التفكير فريضة إسلامية] وله ردود على شبهات المستشرقين .



والإسـلام لم يفعل أكثر من أنه سجل هذه القاعدة وهذا يفسر لنـا بعـد ذلك لمـاذا أعطـى القرآن الرجـل ضعـف النصيب فى الميـراث.. لأنه هو الذى ينفق ولأنه هـو الذى يعول.. ولأنه هو الذى يعمل.. ولأنه هو الذى يحكم.

كان موقف الإسلام من المرأة هو العدل.

وكانت سيرة النبى مع نسائه هى المحبة والحدب والحنان.. ألم يؤثر عنه قوله ﷺ:

«حبب إلىَّ من دنياكم النسـاء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة»؟!

فذكر النسـاء مع الطيب والعطر والصلاة وهذا غاية الإعزاز، وكان آخر ما قاله فى آخر خطبة له قبل موته هو التوصية بالنساء.

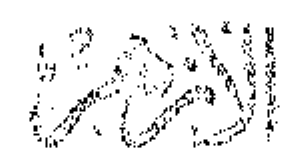
وإذا كان الله قد اختار المرأة للبيت والرجل للشارع فلأنه عهد إلـى الرجل أمانة التعمير والبناء والإنشـاء بينما عهد إلى المرأة أمانة أكبر وأعظم هى تنشئة الإنسان نفسه.

وإنه من الإعظام لشأن المرأة أن تؤتمن على هذه الأمانة.

فهل ظلم الإسلام النساء؟!!

***





الفصل الثامن

الــروح

قال صديقى الدكتور وهو يعلم هذه المرة أن الإشكال سيكون عسيرا.

- مـا دليلك على أن الإنســان له روح وأنه يبعـث بعد موت وأنه ليس مجرد الجسد الذى ينتهى إلى تراب.. وماذا يقول دينكم فى تحضير الأرواح؟

قلت بعد برهة تفكير :

- لاشـك أن السـؤال اليوم صعب والكلام عـن الروح ضرب فى تيه، وأفضِّل الكلام عن (النفس) و (الجسـد)، فالروح شىء آخر فوق مستوى علمنا، والحقائق الموجودة قليلة ولكنها مع ذلك فى صفنا نحن وليست فى صفكم.

ومضت برهة أغرقت فيها فى التفكير ثم قلت مردفا :

- فكر معى قليلا.. إن أول المؤشرات التى تساعدنا على التدليل على وجود النفس.. أن الإنسان ذو طبيعة مزدوجة.

الإنسان له طبيعتان :

طبيعة خارجية ظاهرة مشهودة هى جسده تتصف بكل صفات المـادة، فهـى قابلة للوزن والقيـاس متحيزة فى المـكان متزمنة بالزمـان دائمة التغير والحركة والصيرورة من حال إلى حال ومن

لحظة إلى لحظة فالجسد تتداول عليه الأحوال من صحة إلى مرض إلى سمنة إلى هزال إلى تورد إلى شحوب إلى نشاط إلى كسل إلى نوم إلى يقظة إلى جوع إلى شبع، وملحق بهذه الطبيعة الجسدية شريط من الانفعالات والعواطف والغرائز والمخاوف لا يكف لحظة عن الجريان فى الدماغ.

ولأن هذه الطبيعة والانفعالات الملحقة بها تتصف بخواص المادة نقول إن جسد الإنسان وأعضاءه الظاهرة هما من المادة.

ولكن هناك طبيعة أخرى مخالفة تماما للأولى ومغايرة لها فى داخل الإنسان.

طبيعة من نوع آخر تتصف بالتجرد واللازمان واللامكان والديمومة.. هى العقل بمعاييره الثابتة وأقيسته ومقولاته.. والضمير بأحكامه، والحس الجمالى، والـ«أنا» التى تحمل كل تلك الصفات «من عقل وضمير وحس جمالى وحس أخلاقى».

والـ«أنا» غير الجسد تماما وغير الغرائز الحيوانية التى تلتهب بالجوع والشبق.

الـ«أنا» هى الذات العميقة المطلقة وعن طريق هذه الذات العميقة يشعر الإنسان بذلك الشعور العميق بالحضور والكينونة والشخوص والمثول فى العالم.. وبأنه هنا وبأنه كان دائما هنا.. وهو شعور ثابت ممتد لا يطرأ عليه التغير

لا يسمن ولا يهزل ولا يمرض ولا يتصف بالزمان.. وليس فيه ماض وحاضر ومستقبل.. إنما هو «آن» مستمر لا ينصرم كما ينصرم الماضى.. وإنما يتمثل فى شعور بالدوام.. بالديمومة.

هنا نوع آخر من الوجود لا يتصف بصفات المادة فلا هو يطرأ عليه التغير ولا هو يتحيز فى المكان أو يتزمن بالزمان ولا هو يقبل الوزن والقياس.. وبالعكس نجد أن هذا الوجود هو الثابت الذى نقيس به المتغيرات والمطلق الذى نعرف به كل ما هو نسبى فى عالم المادة.

وأصدق ما نصف به هذا الوجود أنه نفسانىّ وأن طبيعته نفسية.

ولنا أن نسأل بعد ذلك:

أى الطبيعتين هى الإنسان حقا؟

هل الإنسان بالحقيقة هو جسده أو نفسه؟

ولنعرف الجواب علينا أن نبحث أى الطبيعتين هي الحاكمة على الأخرى؟

يقول لنا الماديون إن الإنسان هو جسده، وإن الجسد هو الحاكم وأن كل ما ذكرت من عقل ومنطق وحس جمالي وحس أخلاقى وضمير وهذه «التخريفة» التى اسمها الذات أو الـأنا كل هذا ملحق بالجسد ثانوى عليه تابع له يأتمر بأمره ويقوم على خدمته ويتولى إشباع شهواته وأهوائه.



هـذا كلام إخواننـا الماديين وهو خطأ ، فالحقيقة أن الجسـد تابـع وليـس متبوعا مأمور ليـس آمرا . ألا يجوع الجسـد فنرفض إمـداده بالطعـام لأننا قررنـا أن نصوم هذا اليـوم لله . . ألا يتحرك بشهوة فنزجره ؟ !

ألا نصحـو فـي الصباح فيبدأ الجسـد تلقائيا فـي تنفيذ خطة عمـل وضعها العقـل وصنف بنودها بنـدا بندا . . من سـاعة إلى ساعة من التابع هنا ومن المتبوع ؟

ولحظـة التضحيـة بالنفـس حينمـا يضـع الفدائـى حـزام الديناميت حول جسـده ويتقدم ليحطم الدبابـة ومن فيها . . أين جسـده هنا . . أين المصلحة المادية التـى يحققها بموته . . ومن الذى يأمر الآخر . . إن النفس هنا هى التى تقرر إعدام الجسـد فى لحظة مثالية تماما لا يمكن أن يفسرها مذهب مادى بأى مكسب مادى والجسـد لا يسـتطيع أن يقاوم هذا الأمـر . . ولا يملك أى قـوة لمواجهته ، لا يملك إلا أن يتلاشـى تمامـا . . وهنا يظهر أى الوجودين هو الأعلى . . وأى الطبيعتين هى الإنسـان حقا ؛ النفس أم الجسد .

وعندنـا اليـوم أكثر مـن دليـل على أن الجسـد هـو الوجود الثانـوى . . مـا يجـرى الآن من حـوادث البتر والاسـتبدال وزرع الأعضاء . . ومـا نقرأه عن القلب الإلكترونـى والكلية الصناعية وبنـك الدم وبنـك العيون ومخازن الإكسـسـوار البشـرى حيث يجرى تركيب السيقان والأذرع والقلوب .



ولن تكون نكتة أن يدخل العريس على عروسه سنة ٢٠٥٠ فيجدها تخلع طقم الأسنان والباروكة والنهود الكاوتشوك والعين الصناعية والساق الخشبية فلا يبقى منها إلا هيكل مثل شاسيه السيارة بعد نزع الجلد والكراسى والأبواب.

إلى هذه الدرجة يجرى فك الجسم وتركيبه واستبداله دون أن يحدث شيء للشخصية لأن هذه الذراع أو تلك الساق أو ذلك الشعر أو العين أو النهد كل هذه الأشياء ليست هى الإنسان.. فها هى ذى تنقل وتستبدل وتوضع مكانها بطاريات ومسامير وقطع من الألومنيوم بدون أن يحدث شيء.. فالإنسان ليس هذه الأعضاء وإنما هو النفس الجالسة على عجلة القيادة لتدير هذه الماكينة التى اسمها الجسد.

إنها الإدارة التى يمثلها مجلس إدارة من خلايا المخ.. ولكنها ليست المخ.

فالمخ مثله مثل خلايا الجسد يصدع بالأوامر التى تصدر إليه ويعبر عنها ولكنه فى النهاية ليس أكثر من قفاز لها.. قفاز تلبسه هذه اليد الخفية التى اسمها العقل أو النفس وتتصرف به فى العالم المادى.

نفهم من هذه الشواهد كلها أن الإنسان له طبيعتان :

طبيعة جوهرية حاكمة هى نفسه.

وطبيعة ثانوية زائلة هي جسده.

وما يحدث بالموت أن الطبيعة الزائلة تلتحق بالزوال والطبيعة الخالدة تلتحق بالخلود فيلتحق الجسد بالتراب وتلتحق النفس بعالمها الباقي.

ولعشاق الفلسفة نقدم دليلا آخر على وجود النفس من الخاصية التي تتميز بها الحركة.

فالحركة لا يمكن رصدها إلا من خارجها.

لا يمكن أن تدرك الحركة وأن تتحرك معها في نفس الفلك وإنما لا بد من عتبة خارجية تقف عليها لترصدها.. ولهذا تأتي عليك لحظة وأنت في أسانسير متحرك لا تستطيع أن تعرف أهو واقف أم متحرك لأنك أصبحت قطعة واحدة معه في حركته.. لا تستطيع إدراك هذه الحركة إلا إذا نظرت من باب الأسانسير إلى الرصيف الثابت في الخارج.

ونفس الحالة في قطار يسير بنعومة على القضبان.. لا تدرك حركة مثل هذا القطار وأنت فيه إلا لحظة شروعه في الوقوف أو لحظة إطلالك من النافذة على الرصيف الثابت في الخارج.

وبالمثل لا يمكنك رصد الشمس وأنت فوقها ولكن يمكنك رصدها من القمر أو من الأرض.. كما لا يمكنك رصد الأرض وأنت تسكن عليها وإنما تستطيع رصدها من القمر.

لا تستطيع أن تحيط بحالة إلا إذا خرجت خارجها.

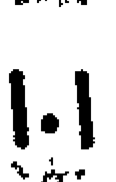
ولهذا ما كنا لنستطيع إدراك مرور الزمن لولا أن الجزء المدرك فينا يقف على عتبة منفصلة وخارجة عن هذا المرور الزمنى المستمر «أى على عتبة خلود».

ولو كان إدراكنا يقفز مع عقرب الثوانى كل لحظة لما استطعنا أن ندرك هذه الثوانى أبدا، ولانصرم إدراكنا كما تنصرم الثوانى بدون أن يلاحظ شيئا.

وهى نتيجة مذهلة تعنى أن هناك جزءا من وجودنا خارجا عن إطار المرور الزمنى «أى خالد» هو الذى يلاحظ الزمن من عتبة سكون ويدركه بدون أن يتورط فيه ولهذا لا يكبر ولا يشيخ ولا يهرم ولا ينصرم.. ويوم يسقط الجسد ترابا سوف يظل هذا الجزء على حاله حيًا حياته الخاصة غير الزمنية.. هذا الجزء هو النفس.

وكل منا يستطيع أن يحس بداخله هذا الوجود النفسى على صورة حضور وديمومة وشخوص وكينونة مغايرة تماما للوجود المادى المتغير المتقلب النابض مع الزمن خارجه.

هذه الحالة الداخلية التى ندركها فى لحظات الصحو الباطنى والتى سميتها حالة حضور.. هى المفتاح الذى يقودنا إلى الوجود النفسى بداخلنا ويضع يدنا على هذا اللغز الذى اسمه النفس...



ودليل آخر على طبيعتنا النفسية هو شعورنا الفطرى بالحرية، ولو كنا أجساما مادية ضمن إطار حياة مادية تحكمنا القوانين المادية الحتمية لما كان هناك معنى لهذا الشعور الفطرى بالحرية.

لنا نفس إذًا تعلو على الزمن وتتخطى الموت وتتخطى الحتميات المادية.

ماذا عن البعث إذًا؟

لم يعد أحد بعد الموت ليخبرنا ماذا جرى له.

ولم يأت يوم البعث لنقدم دليلا ملموسا وشاهد عيان.

وكل ما يمكن قوله فى موضوع البعث أنه حقيقة دينية يرجحها العقل والعلم.

لماذا يرجحها العقل والعلم؟

لأن شواهد الوجود وظواهره تشير جميعًا إلى أن هناك عودا على بدء لكل شيء.. بعد النهار يأتى الليل ثم يعود من جديد فيأتى النهار، والشمس تشرق ثم تغرب ثم تعود فتشرق.

الصيف والخريف والشتاء والربيع، تعود فتتكرر الدورة من جديد فيأتى الصيف ثم الخريف ثم الشتاء إلخ.. بعد اليقظة ونوم الليل نعود فنستيقظ من جديد.. وهذا يرجح أنه بعد رقود الموت هناك صحوة بعث.. لأن هناك عودا لكل شيء.. والله يسمى نفسه فى القرآن المبدئ والمعيد.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (الأعراف : ٢٩)

﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ (يونس : ٤)

كل شيء يجرى في فلك من الذرة إلى المجرة، حتى الحضارات لها دورات والتاريخ له دورات.

هذا العود الأبدى في كل شيء يرجح البعث.

الدليل الآخر على البعث هو النظام المحكم الذى ليس فيه بادرة خلل واحدة من أكبر المجرات حتى أصغر الذرات حتى الإلكترون الذى لا يرى نجد النظام والقانون يهيمن على كل شيء.. حتى الإلكترون المتناهى فى الصغر لا يستطيع أن ينتقل من فلك إلى فلك في الذرة إلا إذا أعطى أو أخذ مقدارا من الطاقة يساوى حركته.. وكأنه راكب قطار لا يستطيع السفر إلى أى مكان بدون تذكرة.. فكيف نتصور فى هذا النظام المحكم أن يهرب قاتل أو يفر ظالم من الجزاء لمجرد أنه ضلل البوليس؟!

إن العقل يتصور أنه لابد سيلقى جزاءه حتما، وأن هناك عالما آخر يسوى فيه الحساب قطعًا.. هكذا يقول العدل.

ونحن مفطورون على تحرى العدل وعلى حب العدل والبحث عن العدل ومحاولة تحقيق العدل.

ومع ذلك فالعدل فى الدنيا غير موجود.

وكما يقول أهل الفكر إذا كان الظمأ إلى الماء يدل على وجود الماء.. فلا بد أن الظمأ إلى العدل يدل على وجود العدل.. فإن

لم يكن موجودا فى دنيانا فلا بد أن له يوما وساعة تنصب فيها موازينه.

كل هذه مؤشرات تشير وترجح أن هناك بعثا وحسابا وعالما آخر.

والمؤمن الذى يصدق القرآن فى غير حاجة إلى هذه الاستدلالات لأنه آمن بقلبه وأراح نفسه من الجدل.

يبقى بعد ذلك أن نسأل.. وما الروح ؟:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٨٥)

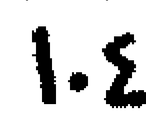
هى لغز ولا أحد يعلم عنها شيئا. وقد انفرد الله بعلمها.

والعجيب أنه كلما جاء ذكر الروح فى القرآن ذكرت معها كلمة من أمر ربى.

﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ (غافر: ١٥)

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ (النحل: ٢)

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ (القدر: ٤)



﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴾ (الشورى: ٥٢)

دائمـا كلمة «من أمرنا» .. «من أمره» .. «من أمر ربى» .. كلما ذكرت الروح.

أيكون أمر الله روحا؟

وكلمة الله روحا؟

ألم يقل الله عن المسيح عليه السلام إنه :

﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ (آل عمران: ٤٥)

وإنه :

﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾

(النساء: ١٧١)

الكلمـة .. الأمر .. الـروح .. هل هـى ألفاظ مترادفـة لمعنى واحد؟

هى مجرد إشارات.

ولا أحد يعلم الحقيقة إلا العليم الخبير.

يبقى بعد ذلك سؤالك عن تحضير الأرواح.

وتحضير الأرواح عندنا أمر مشكوك فيه.

مشـكوك فيـه أن ظواهر الغرفـة المظلمة سـببها حضور روح فلان أو علان.



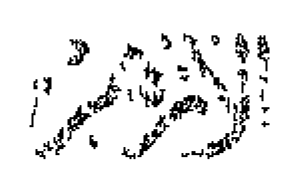
ومفكر كبير مثل هنرى سودر يقول : إن تلك الظواهر مصدرها العقل الباطن للوسيط والقوى الروحية للوسيط ذاته.. ولاشيء يحضر بالمرة.

ويقول المفكرون الهنود : إن الذى يتلبس الوسيط فى أثناء التحضير هى أرواح سفلية شيطانية تعرف بعض الأشياء عن الموتى وتستخدمها فى السخرية بعقول الموجودين والضحك عليهم.

ويقول الصوفية المسلمون إن الذى يحضر فى تلك الجلسات ليس الروح ولكن القرين، وهو الجن الذى كان يصاحب الميت فى أثناء حياته.. وهو بحكم هذه الصحبة يعرف أسراره.. ولأن الجن معمر فإنه يبقى حيا بعد موت صاحبه.. وهو الذى يحضر الجلسات ويفشى أسرار صاحبه ويقلد صوته وعاداته ليسخر من الموجودين على عادة الجن فى عدائهم للإنسان.

وهم يقولون : إننا إذا دققنا جرس المكتب فإن الذى يحضر هو الخادم.. أما السادة فإنهم لا يتركون عالمهم ويحضرون بهذه السذاجة وبالمثل فى عالم الأرواح.. فالذى يحضر فى الجلسات ويهرج على الموجودين هى الأرواح السفلية والجن ومن فى مستواهم.

أما الأرواح الملائكية فهى فى عالم آخر هو عالم البرزخ ولا يمكن استحضارها.. ولكنها قد تتصل بمن تحب فى الحلم أو فى اليقظة إذا توفرت الظروف الملائمة.



ومن الجلسات الكثيرة التي حضرناها ومما جمعنا من خبرة خاصة في هذا الموضوع نقول: إنه لا يوجد دليل واحد على أن ظواهر الغرفة المظلمة سببها حضور الروح المطلوبة.

وربما كان رأي الصوفية المسلمين أكثر الآراء تفسيرا لما يحدث.

والمسألة ما زالت قيد البحث.

وللأسف الشعوذات في هذا الموضوع أكثر من الحقائق.. والكلمة الأخيرة لم تقل بعد.

ولا شك أنك سوف تضحك على كلمات مثل الجن والأرواح السفلية.. والقرين.. والعفاريت.

ولك عذرك.. فإذا كنت لا تؤمن بنفسك ذاتها فكيف يتوقع منك أن تؤمن بجني أو عفريت..

وإذا كنت لا تؤمن بالله فكيف ينتظر منك أن تؤمن بشياطينه.

ومع ذلك لو كنت ولدت منذ مئة سنة وجاءك رجل يحدثك عن أشعة غير منظورة تخرق الحديد.

صور تنتقل في الهواء عبر المحيطات في أقل من ثانية، ورائد فضاء يمشي على تراب القمر.. ألم تكن تضحك وتقهقه وتستلقي على قفاك أضعاف ما تضحك الآن.. وتقول لنفسك.. هذا رجل هارب من مستشفى المجاذيب ومع ذلك فيا لها من حقائق ملء السمع والبصر الآن.



الفصل التاسع

الضميـــر

قال صاحبى :

- أنتم تتكلمون عن الضمير فى تقديس كما لو كان شيئًا مطلقًا مع أنه أحد المصنوعات الاجتماعية ، عملة نحاسية لا أكثر صكت ودمغت وسبكت فى فرن التعاملات الاجتماعية وهو عندنا شىء تتغير أحكامه وضوابطه وفق المصالح الجارية .. القيمة التى تفيد نقول عنها خيرًا والقيمة التى تضر نقول عنها شرًا ولو كانت هذه القيمة هى العفة التى تتمسكون بها كعيونكم .

قلت له فى هدوء :

- نعم .. هذا هو رأى الفلسفة المادية على ما أسمع .. إن الضمير سلطة زجر وردع نبتت من الدواعى الاجتماعية .. مجرد تحصيل خبرة تتفاوت بين شخص وشخص وبين عصر وعصر وبين أمة وأمة .

هذا كلامكم ..

ولكن الحقيقة غير ذلك ..

الحقيقة أن الضمير نور وضعه الله فى الفطرة ومؤشر ودليل وبوصلة نولد بها .. تهدينا إلى الحقائق وكل دور الاكتساب الاجتماعى أنه يجلو مرآة هذه البوصلة ويصقل زجاجها .



ولنا على ذلك براهين تؤيدنا وتشجب كلامكم.

انظـر إلى عالم الحيوان حيث لا مجتمع، ترى القطة تتبرز ثم تستدير لتغطى فضلاتها بالتراب، فى أى مجتمع قططى تعلمت القطة هذا الوازع؟

وكيف ميزت بين القذارة والنظافة؟

وأنت ترى القطة تسرق السمكة فإذا ضبطتها وضربتها على رأسها طأطأت ونكست بصرها فى إحساس واضح بالذنب.. وتراها تلهو مع الأطفال فى البيت فتكسر فازة أثناء اللعب.. فماذا يحدث، إنها تجرى فى فزع وتختبئ تحت الكراسى وقد أدركت أنها أخطأت.

كل هذه شواهد وملامح ضمير.

وليس فى مملكة القطط دواع لنشأة هذه المشاعر.. ولا نرى حتى مجتمعًا قططيًا من الأساس.

وتقاليد الوفاء الزوجى فى طيور الحمام..

ونبل الحصان فى ارتباطه بصاحبه حتى الموت..

وكبرياء الأسد وترفعه عن الهجوم على فريسته من الخلف.. وخجل الجمل وتوقفه عن مضاجعة أنثاه إذا وجد أن هناك عينًا ترقبه..



ثم تلك الحادثة البليغة التي رآها جمهور المشاهدين في السيرك القومي بالقاهرة.. حينما قفز الأسد على المدرب محمد الحلو من الخلف وأنشب مخالبه في كتفه وأصابه بجرح قاتل..

وبقية الحادثة يرويها موظفو السيرك.. كيف امتنع الأسد عن الطعام.. وحبس نفسه في زنزانته لا يبرحها.. وكيف نقلوه إلى حديقة الحيوان وقدموا له أنثى لتروح عنه فضربها وطردها.. وظل على صيامه ورفضه للطعام ثم انقض على يده الآثمة وظل يمزقها حتى نزف ومات.

حيوان ينتحر ندمًا وتكفيرًا عن جريمته.

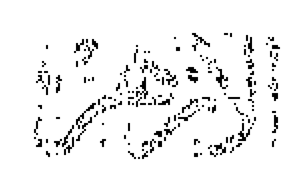
من أي مجتمع في دنيا السباع أخذ الأسد هذه التقاليد.. هل في مجتمع السباع أن افتراس الإنسان جريمة تدعو إلى الانتحار.

نحن هنا أمام نبل وخلق وضمير لا نجده في بشر.

ونحن أمام فشل كامل للتفسير الماديّ وللتصور الماديّ لحقيقة الضمير.

ولا تفسير لما نراه سوى ما يقوله الدين.. من أن الضمير هو نور وضعه الله في الفطرة وأن كل دور الاكتساب الاجتماعي أن يجلو صدأ النفس فتشف عن هذا النور الإلهي.

وهذا هو ما حدث بين الأسد ومدربه.. المعاشرة والمحبة والمصاحبة صقلت تلك النفس الحيوانية فأيقظت ذلك القبس الرحماني.. فإذا بالأسد يحزن ويندم وينتحر كمدًا كالبشر.



«الحلال بين والحرام بين» ... كما قال نبينا ﷺ .

«استفت قلبك وإن أفتاك الناس» .

لسنا فى حاجة إلى كلية شريعة لنعرف الخطأ من الصواب والحق من الباطل ، والحرام من الحلال .. فقد وضع الله فى قلب كل منا كلية شريعة .. وميزانا لا يخطئ .. وكل ما نحن مطالبون به أن نجلو نفوسنا من غواشى المادة ومن كثافة الشهوات فنبصر ونرى ونعرف ونميز بدون عكاز «الخبرة الاجتماعية» وذلك بنور الله الذى اسمه الضمير .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾
(الأنفال : ٢٩)

يقول الله فى الحديث القدسى الذى يفسره الصوفى محمد بن عبدالجبار[١٨] :

«كيف تيأس منّى وفى قلبك سفيرى ومتحدثى» .

الضمير حقيقة ثابتة والقيم الأخلاقية الأساسية هى بالمثل ثابتة فقتل البريء لن يصبح يومًا ما فضيلة وكذا السرقة والكذب وإيذاء الآخرين والفحشاء والفجور والبذاءة والغلظة والقسوة والنفاق والخيانة كل هذه نقائص خلقية ، وسوف تظل هكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

(١٨) محمد بن عبد الجبار النفرى [٣٥٤هـ - ٩٦٥م] من أقطاب التصوف ، اشتهر بكتابيه [المواقف] و [المخاطبات] .



وكذلك سوف تظل المحبة والرحمة والصدق والحلم والعفو والإحسان فضائل.. ولن تتحول إلى جرائم إلا إذا فسدت السماوات والأرض وساد الجنون وانتهى العقل.

***



الفصل العاشر

هل مناسك الحج وثنية؟

قال صاحبى وهو يفرك يديه ارتياحا ويبتسم ابتسامة خبيثة تبدى نواجذه وقد لمعت عيناه بذلك البريق الذى يبدو فى وجه الملاكم حينما يتأهب لتوجيه ضربة قاضية.

- ألا تلاحظ معى أن مناسك الحج عندكم هى وثنية صريحة. ذلك البناء الحجرى الذى تسمونه الكعبة وتتمسحون به وتطوفون حوله، ورجم الشيطان.. والهرولة بين الصفا والمروة، وتقبيل الحجر الأسود..

وحكاية السبع طوفات والسبع رجمات والسبع هرولات وهى بقايا من خرافة الأرقام الطلسمية فى الشعوذات القديمة، وثوب الإحرام الذى تلبسونه على اللحم..

لا تؤاخذنى إذا كنت أجرحك بهذه الصراحة ولكن لا حياء فى العلم.

وراح ينفث دخان سيجارته ببطء ويراقبنى من وراء نظارته.

قلت فى هدوء:

- ألا تلاحظ معى أنت أيضا فى قوانين المادة التى درستها أن الأصغر يطوف حول الأكبر، الإلكترون فى الذرة يدور حول النواة، والقمر حول الأرض،



والأرض حول الشمس، والشمس حول المجرة، والمجرة حول مجرة أكبر، إلى أن نصل إلى «الأكبر مطلقا» وهو الله.. ألا نقول «الله أكبر».. أى أكبر من كل شيء.. وبالتالى وحسب قانونك العلمى يجب أن يطوف حوله كل شيء.. وأنت الآن تطوف حوله ضمن مجموعتك الشمسية برغم أنفك ولا تملك إلا أن تطوف فلا شيء ثابت فى الكون إلا الله هو الصمد الصامد الساكن والكل فى حركة حوله.. وهذا هو قانون الأصغر والأكبر الذى تعلمته فى الفيزياء.. أما نحن فنطوف باختيارنا حول بيت الله.. وهو أول بيت اتخذه الإنسان لعبادة الله.. فأصبح من ذلك التاريخ السحيق رمزا وبيتا لله ..

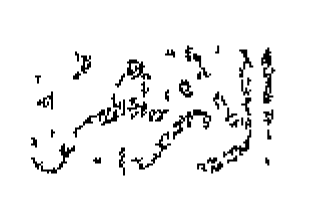
ألا تطوفون أنتم حول رجل محنط فى الكرملين(١٩) تعظمونه وتقولون إنه أفاد البشرية، ولو عرفتم لشكسبير قبرا لتسابقتم إلى زيارته بأكثر مما نتسابق إلى زيارة قبر محمد ﷺ ..

ألا تضعون باقة ورد على نصب حجرى وتقولون إنه يرمز للجندى المجهول فلماذا تلوموننا لأننا نلقى حجرا على نصب رمزى نقول إنه يرمز إلى الشيطان ..

ألا تعيش فى هرولة من ميلادك إلى موتك ثم بعد موتك يبدأ ابنك الهرولة من جديد وهى نفس الرحلة الرمزية من الصفا

(١٩) لينين ـ فلادمير [١٨٧٠ - ١٩٢٤م] مؤسس الحزب الشيوعى السوفيتي، وزعيم الثورة البلشفية ١٩١٧م، من آثاره [الدولة والثورة] و[ما العمل] و[الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية].





«الصفاء أو الخواء أو الفراغ رمز للعدم» إلى المروة وهى النبع الذى يرمز إلى الحياة و الوجود.. من العدم إلى الوجود ثم من الوجود إلى العدم.. أليست هذه هى الحركة البندولية لكل المخلوقات.. ألا ترى فى مناسك الحج تلخيصا رمزيا عميقا لكل هذه الأسرار.

ورقم ٧ الذى تسخر منه.. دعنى أسألك ما السر فى أن درجات السلم الموسيقى ٧ صول لا سى دو رى مى فا ثم بعد المقام السابع يأتى جواب الصول من جديد.. فلا نجد ٨ وإنما نعود إلى سبع درجات أخرى وهلم جرا، وكذلك درجات الطيف الضوئى ٧ وكذلك تدور الإلكترونات حول نواة الذرة فى نطاقات ٧ والجنين لا يكتمل إلا فى الشهر ٧ وإذا ولد قبل ذلك يموت وأيام الأسبوع عندنا وعند جميع أفراد الجنس البشرى ٧ أيام وضعوها كذلك دون أن يجلسوا ويتفقوا.. ألا يدل ذلك على شىء.. أم أن كل هذه العلوم هى الأخرى شعوذات طلسمية؟.

ألا تقبل خطابا من حبيبتك.. هل أنت وثنى؟ فلماذا تلومنا إذا قبلنا ذلك الحجر الأسود الذى حمله نبينا محمد ﷺ فى ثوبه وقبله. لا وثنية فى ذلك بالمرة.. لأننا لا نتجه بمناسك العبادة نحو الحجارة ذاتها.. وإنما نحو المعانى العميقة والرموز والذكريات.

إن مناسك الحج هى عدة مناسبات لتحريك الفكر وبعث المشاعر وإثارة التقوى فى القلب. أما ثوب الإحرام الذى نلبسه على اللحم ونشترط ألا يكون مخيطا فهو رمز للخروج من زينة الدنيا وللتجرد التام أمام حضرة الخالق.. تماما كما نأتى إلى الدنيا فى اللفة ونخرج من الدنيا فى لفة وندخل القبر فى لفة.. ألا تشترطون أنتم لبس البدل الرسمية لمقابلة الملك ونحن نقول : إنه لا شىء يليق بجلالة الله إلا التجرد وخلع جميع الزينة لأنه أعظم من جميع الملوك ولأنه لا يصلح فى الوقفة أمامه إلا التواضع التام والتجرد.. ولأن هذا الثوب البسيط الذى يلبسه الغنى والفقير والمهراجا والمليونير أمام الله فيه معنى آخر للأخوة رغم تفاوت المراتب والثروات.

والحج عندنا اجتماع عظيم ومؤتمر سنوى..

ومثله صلاة الجمعة وهى المؤتمر الصغير الذى نلتقى فيه كل أسبوع.

هى كلها معان جميلة لمن يفكر ويتأمل.. وهى أبعد ما تكون عن الوثنية.

ولو وقفت معى فى عرفة بين عدة ملايين يقولون الله أكبر ويتلون القرآن بأكثر من عشرين لغة ويهتفون لبيك اللهم لبيك ويبكون ويذوبون شوقا وحبا ـ لبكيت أنت أيضا بدون أن تدرى وذُبتَ فى الجمع الغفير من الخلق.. وأحسست بذلك الفناء والخشوع أمام الإله العظيم مالك الملك الذى بيده مقاليد كل شىء.



الفصل الحادى عشر
لماذا لا يكون القرآن من تأليف محمد؟

قال صاحبى وهو ينتقى عباراته:

- لا أريد أن أجرحك فأنا أعلم اعتزازك بالقرآن وأنا معك فى أنه كتاب قيم.. ولكن لماذا لا يكون من تأليف محمد؟.. إن رجلا فى عظمة محمد لا يستغرب منه أن يضع كتابا فى عظمة القرآن..

وسوف يكون هذا منطقيا أكثر من أن نقول إن الله أنزله. فإنا لم نر الله ينزل من السماء شيئا.. ونحن فى عصر من الصعب أن نقنع فيه إنسانا بأن هناك ملاكا اسمه جبريل نزل من السماء بكتاب ليوحى به إلى أحد.

قلت فى هدوء:

- بل نحن فى عصر يسهل فيه تماما أن نصدق بأن هناك ملائكة لا تُرى، وبأن الحقائق يمكن أن تلقى إلى الإنسان وحيا.. فهم يتكلمون اليوم عن أطباق طائرة تنزل على الأرض من كواكب بعيدة وأشعة غير منظورة تقتل، وأمواج لاسلكية تحدد الأهداف وتضربها.. وصور تتحول إلى ذبذبات فى الهواء ثم تستقبل فى أجهزة صغيرة كعلب التبغ.. وكاميرات تصور الأشباح.. وعيون ترى فى الظلام.. ورجل يمشى على القمر.. وسفينة تنزل على المريخ..



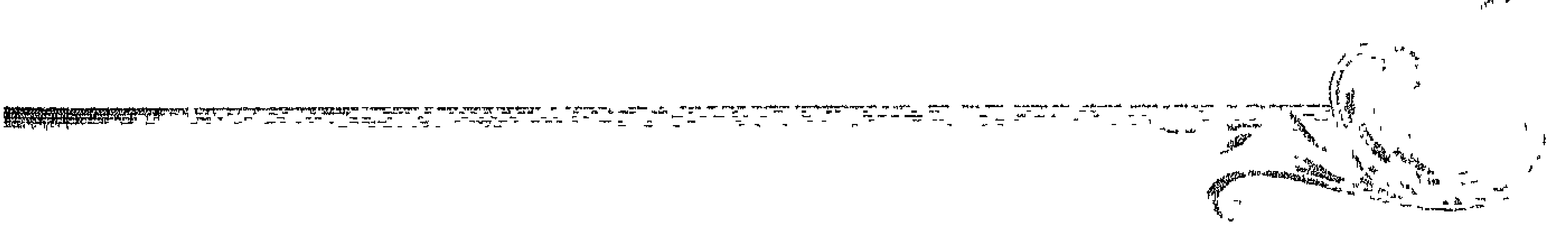
لم يعد غريبا أن نسمع أن الله أرسل ملكا خفيا من ملائكته.. وأنه ألقى بوحيه على أحد أنبيائه.. لقد أصبح وجود جبريل اليوم حقيقة من الدرجة الثانية.. وأقل عجبا وغرابة مما نرى ونسمع كل يوم.

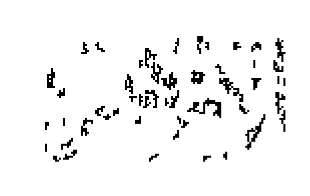
أما لماذا لا نقول إن القرآن من تأليف محمد ﷺ.. فلأن القران بشكله وعباراته وحروفه وما احتوى عليه من علوم ومعارف وأسرار وجمال بلاغى ودقة لغوية هو مما لا يدخل فى قدرة بشر أن يؤلفه.. فإذا أضفنا الى ذلك أن محمدا ﷺ كان أميا، لا يقرأ ولا يكتب ولم يتعلم فى مدرسة ولم يختلط بحضارة، ولم يبرح شبه الجزيرة العربية، فإن احتمال الشك واحتمال إلقاء هذا السؤال يغدو مستحيلا.. والله يتحدى المنكرين أمثالك ممن زعموا أن القرآن مؤلف:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾
(يونس: ٣٨)

استعينوا بالجن والملائكة وعباقرة الإنس وأتوا بسورة من مثله ومازال التحدى قائما ولم يأت أحد بشىء...

وإذا نظرنا إلى القرآن فى حياد وموضوعية فسوف نستبعد تماما أن يكون محمد ﷺ هو مؤلفه.





أولا: لأنه لو كان مؤلفه لبث فيه همومه وأشجانه، ونحن نراه في عام واحد يفقد زوجه خديجة وعمه أبا طالب ولا سند له فى الحياة غيرهما.. وفجيعته فيهما لا تقدر.. ومع ذلك لا يأتى لهما ذكر فى القرآن ولا بكلمة.. وكذلك يموت ابنه إبراهيم ويبكيه، ولا يأتى لذلك خبر فى القرآن.. القرآن معزول تماما عن الذات المحمدية.

بل إن الآية لتأتى مناقضة لما يفعله محمد ﷺ وما يفكر فيه.. وأحيانا تنزل الآية معاتبة له كما حدث بصدد الأعمى الذى انصرف عنه النبى إلى أشراف قريش:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ (عبس: ١-٤)

وأحيانا تنزل الآية فتنقض عملا من أعمال النبى:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(الأنفال: ٦٧-٦٨)

وأحيانا يأمر القرآن محمدًا ﷺ بأن يقول لأتباعه ما لا يمكن أن يقوله لو أنه كان يؤلف الكلام تأليفا:



﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾

(الأحقاف : ٩)

لا يوجد نبى يتطوع من تلقاء نفسه ليقول لأتباعه لا أدرى ما يفعل بى ولا بكم .. لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا .. ولا أملك لكم ضرا ولا نفعا . فإن هذا يؤدى إلى أن ينفض عنه أتباعه . وهذا ما حدث فقد اتخذ اليهود هذه الآية عذرا ليقولوا : ما نفع هذا النبى الذى لا يدرى ماذا يفعل به ولا بنا .. هذا رجل لا جدوى فيه . مثل هذه الآيات ما كان يمكن أن يؤلفها النبى لو كان يضع القرآن من عند نفسه .

ثانيا : لو نظرنا بعد ذلك فى العبارة القرآنية لوجدنا أنها جديدة منفردة فى رصفها وبنائها ومعمارها ليس لها شبيه فيما سبق من أدب العرب ولا شبيه فيما أتى لاحقا بعد ذلك .. حتى لتكاد اللغة تنقسم إلى شعر ونثر وقرآن .. فنحن أمام كلام هو نسيج وحده لا هو بالنثر ولا بالشعر . فموسيقى الشعر تأتى من الوزن ومن التقفية فنسمع الشاعر ابن الأبرص الأسدى[٢٠] ينشد :

أقفر من أهله عبيد ... فليس يبدى ولا يعيد

هنا الموسيقى تخرج من التشطير ومن التقفية على الدال الممدودة ، فهى موسيقى خارجية .. أما موسيقى القرآن فهى موسيقى داخلية :

(٢٠) ابن الأبرص الأسدى على بن جاسم بن محمد الأسدى [١٢٤٠-١٣٣٢هـ-١٨٢٥-١٩١٤م]



﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ (الضحى : ١-٢)

لا تشطير ولا تقفية فى هذه العبارة البسيطة، ولكن الموسيقى تقطر منها.. من أين؟ إنها موسيقى داخلية.

اسمع هذه الآيات :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴾ (مريم : ٤)

وهذه الآيات :

﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ (طه : ١-٥)

فإذا تناولت الآيات تهديدا تحول بناء العبارة ونحتها إلى جلاميد صخر. وأصبح للإيقاع صلصلة نحاسية تصخ السمع :

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴾ (القمر : ١٩-٢٠)

كلمات مثل ﴿ صَرۡصَرٗا ﴾. ﴿ مُّنقَعِرٖ ﴾. كل كلمة كأنها جلمود صخر. فإذا جاءت الآية لتروى خبرا هائلا كما فى



نهاية الطوفــان تقاصرت العبارات وكأنها إشــارات «مورس»[٢١] التلغرافية. وأصبحت الآية كلهــا كأنها تلغراف مقتضب له وقع هائل:

﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ (هود: ٤٤)

هــذا التلون فــي نحت الألفــاظ وفى بنــاء العبارة وفــي إيقاع الكلمات مع المعانى والمشــاعر.. يبلغ فى القرآن الذروة ويأتى دائما منسابا لا تكلف فيه ولاتعمل.

ثالثا: إذا مضينا فى التحليل أكثر فإنا سنكتشف الدقة البالغة والإحــكام المذهل.. كل حرف فــي مكانه لا تقديم ولا تأخير.. لا تســتطيع أن تضع كلمة مكان كلمة، ولا حرفا مكان حرف.. كل لفظة تم اختيارها من مليون لفظة بميزان دقيق.

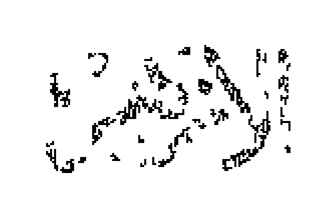
وسنرى أن هذه الدقة البالغة لا مثيل لها فى التأليف.

انظر إلى هذه الكلمة ﴿ لَوَٰقِحَ ﴾ فى الآية:

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ (الحجر: ٢٢)

وكانوا يفســرونها فى الماضى علــى المعنى المجازى بمعنى أن الريــاح تثير الســحب فتســقط المطــر فيلقــح الأرض بمعنى

(٢١) موريــس ـ صاموئيــل مورس [١٧٩١ - ١٨٧٢م] أمريكى مختــرع البرق، الإبراق، والشيفرة.. أى الترميز.



«يخصبها» ثم عرفنا اليوم أن الرياح تسوق السحب إيجابية التكهرب وتلقى بها فى أحضان السحب سالبة التكهرب فيحدث البرق والرعد والمطر.. وهى بهذا المعنى «لواقح» أيضا، ونعرف الآن أيضا أن الرياح تنقل حبوب اللقاح من زهرة إلى زهرة فتلقحها بالمعنى الحرفى، ونعرف أخيرا أن المطر لا يسقط إلا بتلقيح قطيرات الماء بذرات الغبار فتنمو القطيرات حول هذه الأنوية من الغبار وتسقط مطرا. فها نحن أولاء أمام كلمة صادقة مجازيا وحرفيا وعلميا، ثم هى بعد ذلك جميلة فنيا وأدبيا وذات إيقاع حلو.

هنا نرى منتهى الدقة فى انتقاء اللفظة ونحتها، وفى آية أخرى:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ١٨٨)

كلمة﴿ وَتُدْلُواْ ﴾.

مع أن الحاكم الذى تلقى إليه الأموال فى الأعلى وليس فى الأسفل.. لا، إن القران يصحح الوضع، فاليد التى تأخذ الرشوة هى اليد السفلى ولو كانت يد الحاكم.. ومن هنا جاءته كلمة ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾ لتعبر فى بلاغة لامثيل لها عن دناءة المرتشى وسفله.

وفى آية الجهاد :

﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾

(التوبة : ٣٨)

القرآن يستعمل كلمة ﴿ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ بدلا من تثاقلتم . . يدمج الحروف إدماجا ، ويلصقها إلصاقا ليعبر عن جبن الجبناء الذين يلتصقون بالأرض «ويتربسون» فيها من الخوف إذا دعوا إلى القتال ، فجاءت حروف الكلمة بالمثل «متربسة» .

وفى آية قتل الأولاد من الفقر نراها جاءت على صورتين :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(الأنعام : ١٥١)

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾

(الإسراء : ٣١)

والفرق بين الآيتين لم يأت اعتباطا ، وإنما جاء لأسباب محسوبة . . فحينما يكون القتل من إملاق فإن معناه أن الأهل فقراء فى الحاضر ، فيقول : نحن «نرزقكم» وإياهم . وحينما يكون قتل الأولاد خشية إملاق فإن معناه أن الفقر هو احتمال فى المستقبل ولذا تشير الآية إلى الأبناء فتقول نحن ﴿ نَرْزُقُهُمْ ﴾ وإياكم . مثل هذه الفروق لا يمكن أن تخطر على بال مؤلف .

وفـى حالات التقديـم والتأخير نجد دائما أنـه لحكمة. نجد أن السـارق مقدم على السارقة في آية السرقة، فى حين أن الزانية مقدمة على الزانى فى آية الزنى.. وذلك لسبب واضح، أن الرجل أكثـر إيجابية فى السـرقة.. أما فى الزنى فالمـرأة هى التى تأخذ المبادرة، من لحظة وقوفها أمام المرآة تضع «البارفان» ولمسـات «التواليـت» وتختار الفسـتان أعلى الركبة فإنهـا تنصب الفخاخ للرجل الموعود.

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ (النور : ٢)

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾

(المائدة : ٣٨)

وبالمثل تقديم السمع على البصر فى أكثر من ١٦ مكانا:

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ (النحل: ٧٨)

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً ﴾ (الأحقاف: ٢٦)

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ (مريم: ٣٨)

﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾

(الإسراء: ٣٦)

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ ﴾

(فصلت: ٢٢)

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾
(الشورى: ١١)

دائما السمع أولا.

ولا شك أن السمع أكثر إرهافا وكمالا من البصر. إننا نسمع الجن ولا نراه. والأنبياء سمعوا الله وكلموه ولم يره أحد.

وقد تلقى محمد القرآن سمعا. والأم تميز بكاء ابنها فى الزحام ولا تستطيع أن تميز وجهه. والسمع يصاحب الإنسان أثناء النوم فيظل صاحيا فى حين تنام عيناه، ومن حاول تشريح جهاز السمع يعلم أنه أعظم دقة وإرهافا من جهاز البصر.

وبالمثل تقديم المال على الولد:

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾
(الشعراء: ٨٨ - ٨٩)

﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾
(التغابن: ١٥)

﴿ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (آل عمران: ١١٦)

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥٥ - ٥٦)

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (التوبة : ٥٥)

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾

(الحديد : ٢٠)

والأمثلة على هذا التقديم كثيرة والسر أن المال عند أكثر الناس أعز من الولد .

ثم الدقة والخفاء واللطف فى الإعراب . انظر إلى هذه الآية :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾

(الحجرات : ٩)

مرة عوملت الطائفتان على أنهما جمع ﴿ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ ومرة على أنهما مثنى ﴿ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ والسر لطيف .

فالطائفتان فى القتال تلتحمان وتصبحان جمعا من الأذرع المتضاربة . . فى حين أنهما فى الصلح تنفصلان إلى اثنين . . وترسل كل واحدة عنها مندوبا ، ومن هنا قال :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾

حتى حروف الجر والوصل والعطف تأتى وتمتنع فى القرآن لأسباب عميقة ، وبحساب دقيق محكم .

مثلا تأتى كلمة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ فى أماكن عديدة من القرآن :

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ (البقرة : ٢١٥)

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾

(الإسراء: ٨٥)

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾

(البقرة: ١٨٩)

دائما الجواب بكلمة ﴿قُلْ﴾.. ولكنها حين تأتى عن الجبال :

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ (طه : ١٠٥)

هنا لأول مرة جاءت ﴿فَقُلْ﴾ بدلا من ﴿قُلْ﴾.

والسبب أن كل الأسئلة السابقة كانت قد سئلت بالفعل، أما سؤال الجبال فلم يكن قد سئل بعد، لأنه من أسرار القيامة، وكأنما يقول الله : فإذا سألوك عن الجبال «فقل».. فجاءت الفاء زائدة لسبب محسوب.

أما فى الآية:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة : ١٨٦)

هنا لا ترد كلمة «قل» لأن السؤال عن ذات الله.. والله أولى بالإجابة عن نفسه..

كذلك الضمير أنا ونحن.

يتكلم الله بضمير الجمع حيثما يكون التعبير عن «فعل» إلهى تشترك فيه مجموع الصفات الإلهية كالخلق، وإنزال القرآن وحفظه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ (الواقعة: ٥٧)

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ (القدر: ١)

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ (الواقعة: ٥٨- ٥٩)

﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ (الإنسان: ٢٨)

و﴿ نَحْنُ ﴾ هنا تعبر عن جمعية الصفات الإلهية وهى تعمل فى إبداع عظيم مثل عملية الخلق.

أما إذا جاءت الآية فى مقام مخاطبة بين الله وعبده كما فى موقف المكالمة مع موسى.. تأتى الآية بضمير المفرد:

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ (طه: ١٤)

الله يقول: ﴿ أَنَا ﴾ لأن الحضرة هنا حضرة ذات، وتنبيها منه سبحانه على مسألة التوحيد والوحدانية فى العبادة.



ونجد مثل هذه الدقة الشديدة فى آيتين متشابهتين عن الصبر تفترق الواحدة عن الأخرى فى حرف اللام.

يقول لقمان لولده:

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

(لقمان: ١٧)

وفى آية أخرى عن الصبر نقرأ:

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

(الشورى: ٤٣)

الصبر فى الأولى ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ وفى الثانية ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ .. وسر التوكيد باللام فى الثانية-أنه صبر مضاعف، لأنه صبر على عدوان بشرى لك فيه غريم، وأنت مطالب فيه بالصبر والمغفرة وهو أمر أشد على النفس من الصبر على القضاء الإلهى الذى لا حيلة فيه.

ونفس هذه الملاحظة عن «اللام» نجدها مرة أخرى فى آيتين عن إنزال المطر وإنبات الزرع:

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴾

«أى مالحا» (الواقعة: ٦٨- ٧٠)

وفى آية ثانية:

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ (الواقعة: ٦٣- ٦٥)

فى الآية الأولى ﴿ جَعَلْنَٰهُ ﴾ أجاجا.. وفى الآية الثانية ﴿ لَجَعَلْنَٰهُ ﴾ حطاما.

واللام جاءت فى الثانية لضرورة التوكيد، لأن هناك من سوف يدعى بأنه يستطيع أن يتلف الزرع كما يتلفه الخالق، ويجعله حطاما. فى حين لن يستطيع أحد من البشر أن يدعى أن فى إمكانه أن ينزل من سحب السماء مطرا مالحا فلا حاجة إلى توكيد باللام.

ونفس هذه الدقة نجدها فى وصف إبراهيم لربه فى القرآن بأنه:

﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ (الشعراء: ٨١)

﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ (الشعراء: ٧٩)

فجاء بكلمة ﴿ هُوَ ﴾ حينما تكلم عن «الإطعام» ليؤكد الفعل الإلهى، لأنه سوف يدعى الكل أنهم يطعمونه. ويسقونه، على حين لن يدعى أحد بأنه يميته ويحييه كما يميته الله ويحييه.

ونجد هذه الدقة أيضا حينما يخاطب القرآن المسلمين قائلا:

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ (البقرة: ١٥٢)

ويخاطب اليهود قائلا:

﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة: ٤٠)

فاليهود ماديون لا يذكرون الله إلا فى النعمة والفائدة والمصلحة والمسلمون أكثر شفافية ويفهمون معنى أن يذكر الله لذاته لا لمصلحة.. وبنفس المعنى يقول الله للخاصة من أولى الألباب:

﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (البقرة: ١٩٧)

ويقول للعوام:

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾

(البقرة: ٢٤)

لأن العوام لا يردعهم إلا النار، أما الخاصة فهم يعلمون أن الله أقوى من كل نار، وأنه يستطيع أن يجعل النار بردا وسلاما إن شاء. ونجد مثل هذه الدقة البالغة فى اختيار اللفظ فى كلام إبليس حينما أقسم على ربه قائلا:

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (ص: ٨٢)

أقسم إبليس بالعزة الإلهية ولم يقسم بغيرها، فأثبت بذلك علمه وذكاءه، لأن هذه العزة الإلهية هى التى اقتضت استغناء الله عن خلقه، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولن يضروا الله شيئا، فهو العزيز عن خلقه، الغنى عن العالمين.



ويقول الله فى حديثه القدسى:

«هؤلاء فى النار ولا أبالى، وهؤلاء فى الجنة ولا أبالى».

وهذا مقتضى العزة الإلهية.

وهى الثغرة الوحيدة التى يدخل منها إبليس، فهو بها يستطيع أن يضل ويوسوس، لأن الله لن يقهر أحدا اختار الكفر على الإيمان.. ولهذا قال﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ لأغوينهم أجمعين.

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ (الأعراف: ١٦- ١٧)

ذكر الجهات الأربع، ولم يذكر من فوقهم ولا من تحتهم. لأن «فوق» الربوبية، «وتحت» تواضع العبودية.. ومن لزم مكانه الأدنى من ربه الأعلى لن يستطيع الشيطان أن يدخل عليه.

ثم ذكر إبليس أن مقعده المفضل للإغواء سوف يكون الصراط المستقيم.. على طريق الخير وعلى سجادة الصلاة، لأن تارك الصلاة والسكير والعربيد ليس فى حاجة إلى إبليس ليضله، فقد تكفلت نفسه بإضلاله، إنه إنسان خرب.. وإبليس لص ذكى، لا يحب أن يضيع وقته بأن يحوم حول البيوت الخربة.

مَثَلٌ آخر من أمثلة الدقة القرآنية نجده فى سبق المغفرة على العذاب، والرحمة على الغضب فى القرآن.. فالله فى «الفاتحة» هو الرحمن الرحيم قبل أن يكون مالك يوم الدين.. وهو دائما

يوصف بأنه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء... تأتى المغفرة أولا قبل العذاب إلا فى مكانين فى آية قطع اليد:

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (المائدة: ٤٠)

لأن العقوبة بقطع اليد عذاب دنيوى.. تليه مغفرة أخروية.. وفى كلام عيسى يوم القيامة عن المشركين الذين عبدوه من دون الله.. فيقول لربه:

﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾
(المائدة: ١١٨)

فلا يقول فإنك أنت الغفور الرحيم تأدبا.. ويذكر لهم العذاب قبل المغفرة.. لعظم الإثم الذى وقعوا فيه.

ونجد هذه الدقة القرآنية مرة أخرى فى تناول القرآن للزمن.. فالمستقبل يأتى ذكره على لسان الخالق على أنه ماض.. فأحداث يوم القيامة ترد كلها على أنها ماض:

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ (الكهف: ٩٩)

﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴾ (الحاقة: ١٦)

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴾ (الشعراء: ٩١)

﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا ﴾ (الكهف: ٤٨)

والسر فى ذلك أن كل الأحداث حاضرها ومستقبلها قد حدثت فى علم الله وليس عند الله زمن يحجب عنه المستقبل،

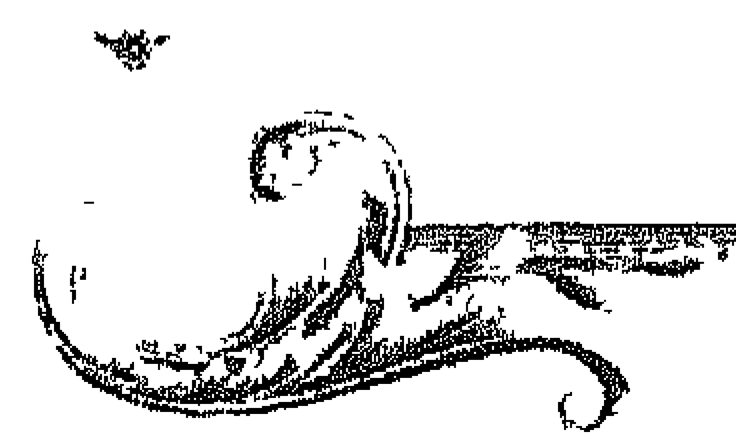
فهو سبحانه فوق الزمان والمكان، ولهذا نقرأ العبارة القرآنية أحيانا فنجد أنها تتحدث عن زمانين مختلفين، وتبدو فى ظاهرها متناقضة مثل:

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ (النحل: ١)

فالأمر قد أتى وحدث فى الماضي. لكن الله يخاطب الناس بألا يستعجلوه كما لو كان مستقبلا لم يحدث بعد.. والسر كما شرحنا أنه حدث فى علم الله، لكنه لم يحدث بعد فى علم الناس، ولا تناقض.. وإنما دقة وإحكام، وخفاء واستسرار، وصدق فى المعانى العميقة.

هذه بعض الأمثلة للدقة البالغة والنحت المحكم فى بناء العبارة القرآنية وفى اختيار الألفاظ واستخدام الحروف لا زيادة ولا نقص، ولا تقديم ولا تأخير، إلا بحساب وميزان، ولا نعرف لذلك مثيلا فى تأليف أو كتاب مؤلف، ولا نجده إلا فى القرآن.

أما لمحات العلم فى القران وعجائب الآيات الكونية التى أتت بالأسرار والخفايا التى لم تكتشف إلا فى عصرنا، والتى لم يعرفها محمد ﷺ ولا عصره فهى موضوع آخر يطول، وله جلسة أخرى.



الفصل الثانى عشر
القرآن لا يمكن أن يكون مؤلفًا

قلت لصديقى :

ربما كان حديث اليوم عن لمحات العلم فى القرآن أكثر إثارة لعقلك العلمى من جلستنا السابقة ..

فما كان الفلك الحديث ، ولا علوم الذرّة ، ولا علوم البيولوجيا والتشريح معروفة حينما نزلت الآيات الكونية فى القرآن منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة لتتكلم عن السماوات والأرض والنجوم والكواكب ، وخلق الجنين وتكوين الإنسان بما يتفق مع أحداث العلوم التى جاء بها عصرنا .

ولم يتعرض القرآن لهذه الموضوعات بتفصيل الكتاب العلمى المتخصص ، لأنه جاء فى المقام الأول كتاب عقيدة ومنهج وتشريع ..

ولو أنه تعرض لِتلك الموضوعات بتفصيل ووضوح لصدم العرب بما لا يفهمونه .. ولهذا لجأ إلى أسلوب الإشارة واللمحة والومضة لتفسرها علوم المستقبل وكشوفه بعد ذلك بمئات السنين .. وتظهر للناس جيلًا بعد جيل كآيات ومعجزات على صدق نزول القرآن من الله الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾
(فصلت : ٥٣)

لأنهم لم يكتفوا بشهادة الله على كتابه.. فأصبح من الضرورى أن نريهم ذلك بالآيات الكاشفة..

هكذا يقول الله فى كتابه..

وما زال القرآن يكشف لنا يومًا بعد يوم مزيدًا من تلك الآيات العجيبة.. وحول كروية الأرض جاءت هذه الآيات الصريحة التى تستخدم لفظ التكوير لتصف انزلاق الليل والنهار كنصفى كرة :

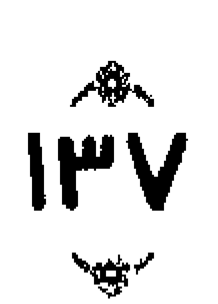
﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ ﴾
(الزمر : ٥)

ثم الآية التى تصف دحو الأرض ..

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ (النازعات : ٣٠)

ودحا هى الكلمة الوحيدة فى القاموس التى تعنى البسط والتكوير معًا.. والأرض كما هو معلوم مبسوطة فى الظاهر ومكورة فى الحقيقة، بل هى أشبه بالدحية «البيضة» فى تكويرها..

ثم نقرأ إشارة أخرى صريحة عن أن الجبال تسبح فى الفضاء، وبالتالى فالأرض كلها تسبح بجبالها حيث هى والجبال كتلة واحدة :



﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾ (النمل: ٨٨)

فالجبــال التــى تبدو جامدة ســاكنة هى فى الواقع ســابحة فى الفضاء.. وتشبيه الجبال بالسحب فيه لمحة أخرى عن التكوين الهــش للمادة.. التى نعــرف الآن أنها مؤلفة مــن ذرّات، كما أن السحب مؤلفة من قطيرات.

ثــم الكلام عن تواقــت الليل والنهار بدون أن يســبق أحدهما الآخر من مبدأ الخلق إلى نهايته.

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ ﴾ (يس: ٤٠)

إشــارة أخرى إلى كروية الأرض.. حيث بدأ الليل والنهار معًا وفــى وقت واحد منذ بدء الخليقة كنصفى كرة ولو كانت الأرض مسطحة لتعاقب النهار والليل الواحد بعد الآخر بالضرورة.

ثــم تأتــى القيامة والأرض فــى ليل ونهار فى وقــت واحد كما كانت يوم البدء.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ ﴾ (يونس: ٢٤)

وفى قولــه تعالى ليلًا أو نهارًا.. تأكيد لهــذا التواقت الذى لا تفســير لــه إلا أن نصــف الأرض محجوب عن الشــمس ومظلم،



والآخر مواجه للشمس ومضيء بحكم كونها كروية، ولو كانت مسطحة لكان لها فى كل وقت وجه واحد، ولما صح أن نقول :

﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ (يس: ٤٠)

ثم تعدد المشارق والمغارب فى القرآن فالله يُوصف :

﴿بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ (المعارج: ٤٠)

﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ (الرحمن: ١٧)

ولو كانت الأرض مسطحة لكان هناك مشرق واحد ومغرب واحد، يقول الإنسان لشيطانه يوم القيامة :

﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ (الزخرف: ٣٨)

ولا تكون المسافة على الأرض أبعد ما تكون بين مشرقين إلا إذا كانت الأرض كروية..

ثم الكلام عن السماء بأن فيها مسارات ومجالات وطرقًا :

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ (الذاريات: ٧)

والحبك هى المسارات..

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ (الطارق: ١١)

أى أنها ترجع كل ما يرتفع فيها إلى الأرض.. ترجع بخار الماء مطرًا.. وترجع الأجسام بالجاذبية الأرضية..



وترجع الأمواج اللاسلكية بانعكاسها من طبقة الأيونوسفير.. كما ترجع الأشعة الحرارية تحت الحمراء معكوسة إلى الأرض بنفس الطريقة فتدفئها فى الليل..

وكما تعكس السماء ما ينقذف إليها من الأرض كذلك تمتص وتعكس وتشتت ما ينقذف إليها من العالم الخارجى، وبذلك تحمى الأرض من قذائف الأشعة الكونية المميتة، والأشعة فوق البنفسجية القاتلة.. فهى تتصرف كأنها سقف..

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ (الأنبياء: ٣٢)

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (الذاريات: ٤٧)

وهو ما يعرف الآن باسم تمدد الكون المطرد..

وكان مثقال الذرة يعرف فى تلك الأيام بأنه أصغر مثقال، وكانت الذرة توصف بأنها جوهر فرد لا ينقسم، فجاء القرآن ليقول بمثاقيل أصغر تنقسم إليها الذرة.. وكان أول كتاب يذكر شيئًا أصغر من الذرة:

﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ ﴾ (سبأ: ٣)

كل هذه لمحات كاشفة قاطعة عن حقائق مذهلة مثل كروية الأرض، وطبيعة السماء والذرة، وهى حقائق لم تكن تخطر على بال عاقل أو مجنون فى ذلك العصر البائد الذى نزل فيه القرآن.

ثم بصيرة القرآن فى تكوين الإنسان وكلامه عن النطفة المنوية وانفرادها بتحديد جنس المولود :

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾

(النجم: ٤٥ ، ٤٦)

وهى حقيقة بيولوجية لم تعرف إلا هذا الزمان.. ونحن نقول الآن إن رأس الحيوان المنوى هو وحده الذى يحتوى على عوامل تحديد الجنس **Sex Determination Factor**.

وتسوية البنان بما فيه من رسوم البصمات التى أوردها الله فى مجال التحدى عن البعث والتجسيد :

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾

(القيامة : ٣ ، ٤)

بل سوف نجسد حتى ذلك البنان ونسويه كما كان.. وفى ذلك لفتة إلى الإعجاز الملحوظ فى تسوية البنان بحيث لا يتشابه فيه اثنان..

وأوهن البيوت فى القرآن هو بيت العنكبوت.. لم يقل الله خيط العنكبوت بل قال بيت العنكبوت..

وخيط العنكبوت كما هو معلوم أقوى من مثيله من الصلب أربع مرات.. إنما الوهن فى البيت لا فى الخيط.. حيث يكون البيت أسوأ ملجأ لمن يحتمى فيه.. فهو مصيدة لمن يقع فيه من الزوار الغرباء..



وهو مقتل حتى لأهلـه.. فالعنكبوت الأنثى تأكل زوجها بعد التلقيـح.. وتأكل أولادهـا عند الفقـس، والأولاد يأكل بعضهـم بعض.

إن بيـت العنكبـوت هو أبلغ مثـال يضرب عن سـوء الملجأ وسـوء المصيـر.. وهكذا حال مـن يلجأ لغيـر الله.. وهنا بلاغة الآية :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤١)

وجـاءت خاتمة الآيـة عبـارة.. ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾.. إشارة إلى أنه علم لن يظهر إلا متأخرًا..

ومعلـوم أن هـذه الأسـرار البيولوجية لم تظهـر إلا متأخرة.. كذلك نجد فى سورة الكهف :

﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾
(الكهف : ٢٥)

ونعـرف الآن أن ثلاثمائـة سـنة بالتقويـم الشمسى تسـاوى ثلاثمائـة وتسـعًا بالتقويـم القمـرى باليـوم والدقيقـة والثانية..

وفـى سـورة مريم يحكى الله تبـارك وتعالى عـن مريم وكيف جاءهـا المخـاض فـأوت إلى جـذع النخلة وهى تتمنـى الموت،



فناداها المنادى أن تهز بجذع النخلة وتأكل ما يتساقط من رطب جنى :

﴿ فَأَجَاءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾ (مريم: ٢٣ - ٢٦)

ولماذا الرطب؟!!

إن أحدث بحث علمى عن الرطب يقول : إن فيه مادة قابضة للرحم تساعد على الولادة، وتساعد على منع النزيف بعد الولادة، مثل مادة **Oxytocin**، وأن فيه مادة ملينة.. ومعلوم طبيًا أن الملينات النباتية تفيد فى تسهيل وتأمين عملية الولادة بتنظيفها للقولون..

إن الحكمة العلمية لوصف الرطب وتوقيت تناول الرطب مع مخاض الولادة فيه دقة علمية واضحة .

هذه الأمثلة من الصدق العلمى والصدق المجازى والصدق الحرفى هو ما أشار إليه الله سبحانه واصفًا القرآن بأنه :

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ (فصلت: ٤٢)

وبأنه :



﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾

(النساء: ٨٢)

اختلافًا بين الآيات وبين بعضها بمعنى تناقضها.. واختلافًا عن الحقائق الثابتة التى سوف تكشفها العلوم.. وكلا الاختلافين نجده دائمًا فى الكتب المؤلفة.. ولهذا يحرص المؤلف على أن يضيف أو يحذف أو يعدل كلما أصدر طبعة جديدة من كتبه.. ونرى النظريات تتلو بعضها البعض مكذبة بعضها البعض.. ونرى المؤلف مهما راعى الدقة يقع فى التناقض.. وهى عيوب لا نجدها فى القرآن.

وهو بعد ذلك معجزة، لأنه يخبرك عن ماض لم يؤرخ ويتنبأ بمستقبل لم يأت..

وقد صدقت نبوءات القرآن المتعددة :

عن انتصار الروم بعد هزيمتهم :

﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾

(الروم: ٢ - ٤)

و ﴿ بِضْعِ ﴾ فى اللغة هى ما بين ثلاث وتسع.. وقد جاء انتصار الروم بعد سبع سنين.



وعن انتصار بدر :

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ (القمر: ٤٥)

وعن رؤيا دخول مكة :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾

(الفتح: ٢٧)

وقد كان..

وما زالت فى القرآن نبوءات تتحقق أمام أعيننا.. فهذا إبراهيم يدعو ربه:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٣٧)

لقد دعا بالرزق لهذا الوادى الجديب..

ثم جاء وعد الله لأهل مكة بالرخاء والغنى حينما أمرهم بمنع المشركين من زيارة البيت فخافوا البوار الاقتصادى والكساد، «وكان أهل مكة يعتمدون فى رواجهم على حج البيت»

فقال ليطمئنهم :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ (التوبة: ٢٨)

وهو وعد نراه الآن يتحقق أمامنا فى البترول الذى يتدفق من الصحراء بلا حساب وترتفع أسعاره فى جنون يومًا بعد يوم.. ثم فى كنوز اليورانيوم التى تخفيها تلك الصحارى بما يضمن لها الرخاء إلى نهاية الزمان ..

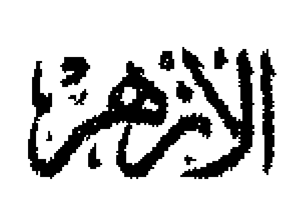
ثم نرى القرآن يحدثنا عن الغيب المطلسم فى أسرار الجن والملائكة مما لم يكشف إلاّ لقلة من المخصوصين من أهل التصوف.. فإذا رأى هؤلاء فهم لا يرون إلا ما يوافق كلمة القرآن..

وإذا طالعوا لا يطالعون إلا ما يطابق أسراره.

ثم هو يقدم لنا الكلمة الأخيرة فى السياسة والأخلاق، ونظم الحكم، والحرب والسلم، والاقتصاد والمجتمع، والزواج والمعاشرة، ويشرع لنا من محكم الشرائع ما يسبق به ميثاق حقوق الإنسان..

كل ذلك فى أسلوب منفرد وعبارة شامخة وبنيان جمالى وبلاغى هو نسيج وحده فى تاريخ اللغة.

سألوا ابن عربى عن سر إعجاز القرآن فأجاب بكلمة واحدة هى: «الصدق المطلق»، فكلمات القرآن صادقة صدقًا مطلقًا، فى حين أقصى ما يستطيعه مؤلف هو أن يصل إلى صدق نسبى، وأقصى ما يطمع فيه كاتب هو أن يكون صادقًا حسب رؤيته..



ومساحة الرؤية دائمًا محدودة ومتغيرة من عصر إلى عصر.. كل واحد منا يحيط بجانب من الحقيقة وتفوته جوانب، ينظر من زاوية وتفوته زوايا..

وما يصل إليه من صدق دائمًا صدق نسبى.. أما صاحب العلم المحيط والبصر الشامل فهو الله وحده..

وهو وحده القادر على الصدق المطلق.. ولهذا نقول على القرآن إنه من عند الله، لأنه أصاب الصدق المطلق فى كل شىء.

سألوا محمدًا ﷺ عن القرآن فقال :

«فيه نبأ ما قبلكم، وفصل ما بينكم، وخبر ما بعدكم، وهو الفصل ليس بالهزل، وهو الذكر الحكيم، وهو حبل الله المتين، وهو الصراط المستقيم، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو الذى لا تلتبس به الألسن، ولا تزيغ به العقول، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، ولا تنقضى عجائبه»..

عن انفجار شمسنا ونهاية الحياة على الأرض وقيام القيامة يقول ربنا فى سورة الرحمن:

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ



﴿بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ﴿٤٤﴾﴾

(الرحمن: ٣٧-٤٤)

وتأتينا علوم الفلك الآن وبعد ألف وأربعمائة سنة من نزول القرآن.. بأن هذه نهاية النجوم التي بكتلة شمسنا... أن تنفجر في نهاية عمرها على شكل وردة تملأ السماء بألوانها المبهرة.. بل ويطلق الفلكيون على بعض هذه النجوم المنفجرة اسم **Rosetta** أى وردة ..

من أى مصدر جاءت هذه النبوءات للرسول منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام ..

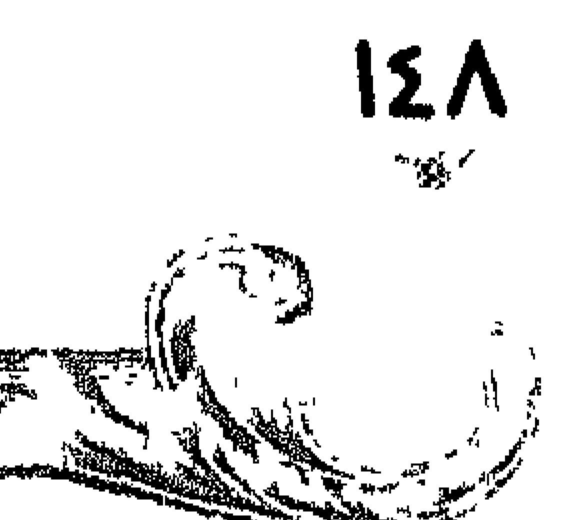
إلا أن تكون من رب الكون نفسه.. ويستطيع أى قارئ أن يرى هذه العجائب على الإنترنت موقع **NASA**:

باب **Astronomical picture of the day** بعنوان **Cats eye** وهذا كلامهم وليس كلامنا ..

وهذا هو كتابنا يا صديقى ..

ولهذه الصفات مجتمعة لا يمكن أن يكون مؤلفًا ..

***



الفصل الثالث عشر

شكـــوك

قال صاحبى :

- تقول إن القرآن لا يتناقض مع نفسه فما بالك بهذه الآية :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف : ٢٩)

والآية الأخرى التى تنقضها :

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الإنسان : ٣٠)

ثم نجد القرآن يقول عن حساب المذنبين إنهم سوف يسألون :

﴿ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ (الزخرف : ١٩)

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ (الزخرف : ٤٤)

ومرة أخرى يقول :

﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (القصص : ٧٨)

وأنهم سوف يعرفون بسيماهم :

﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ (الرحمن : ٤١)

ومرة يقول إنه لا أحد سوف يشد وثاق المجرم .

﴿ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ (الفجر : ٢٦)

بمعنى أن كل واحد سوف يتكفل بتعذيب نفسه.

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (الإسراء: ١٤)

ومرة يقول:

﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ (الحاقة: ٣٢)

قلت له:

هذه ليست تناقضات.. ولنفكر فيها معا، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.. آية صريحة تشير إلى حرية العبد واختياره.. ولكن هذه الحرية لم نأخذها من الله غصبا وغلابا.. وإنما أعطاها إيانا بمشيئته.. فتأتى الآية الثانية لتشرح ذلك فتقول:

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الإنسان: ٣٠)

أى أن حرية العبد ضمن مشيئة الرب وليست ضدها.. أى أن حرية العبد يمكن أن تناقض الرضا الإلهى فتختار المعصية ولكنها لا يمكن أن تناقض المشيئة.. فهى تظل دائما ضمن المشيئة، ولو خالفت الرضا.. وهى نقطة دقيقة.. شرحناها فى موضوع المخير والمسير وقلنا إن التسيير الإلهى هو عين التخيير، لأن الله يختار للعبد من جنس نيته وقلبه.. ومعنى ذلك أنه يريد للعبد نفس ما أراد العبد لنفسه بنيته واختيار قلبه... أى أن العبد مسير إلى ما اختار.. ومعنى ذلك أنه لا إكراه و أنه لا ثنائية ولا تناقض.. وأن التسيير هو عين التخيير. وهى مسألة

من أدق المسائل فى فهم لغز المخير والمسير .. وما تسميه أنت تناقضا هو فى الحقيقة جلاء ذلك السر .

أما الآيات الواردة عن الحساب فإن كل آية تعنى طائفة مختلفة ، فهناك من سوف يسأل وتطلب شهادته ، وهناك من ستكون ذنوبه من الكثرة بحيث تطفح على وجهه ، وهؤلاء هم الذين سوف يعرفون بسيماهم فيؤخذون بالنواصي والأقدام ، وهناك المعاند المنكر الذى سوف تشهد عليه يداه ورجلاه :

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (يس : ٦٥)

وهناك من سيكون حسيبا على نفسه يعذبها بالندم ويشد وثاقها بالحسرة .. وهو الذى لا يوثق وثاقه أحد .

وهناك أكابر المجرمين الجبارين الذين سوف يكذبون على الله ، وهم يواجهونه ويحلفون الكذب وهم فى الموقف العظيم :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾ (المجادلة : ١٨)

وهؤلاء هم الذين سوف يسحبون على وجوههم ويوثقون فى السلاسل . . وأبو حامد الغزالى يفسر هذه السلاسل بأنها سلاسل الأسباب .

– وما رأيك فى كلام القرآن عن العلم الإلهى :



﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾
(لقمان: ٣٤)

يقول القرآن إن الله اختص نفسه بهذا العلم لا يعلمه غيره:

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (الأنعام: ٥٩)

فما بالك الآن بالطبيب الذى يستطيع أن يعلم ما بالأرحام، ويستطيع أن يتنبأ إن كان ذكرا أم أنثى.. وما بالك بالعلماء الذين أنزلوا المطر الصناعى بالأساليب الكيماوية.
لم يتكلم القرآن عن إنزال المطر وإنما عن إنزال الغيث، وهو المطر الغزير الكثيف الذى ينزل بكميات تكفى لتغيير مصير أمة وإغاثتها ونقلها من حال الجدب إلى حال الخصب والرخاء.. والمطر بهذه الكميات لا يمكن إنزاله بتجربة.

أما علم الله لما فى الأرحام فهو علم كلى محيط وليس فقط علما بجنس المولود هل هو ذكر أو أنثى، وإنما علم بمن يكون ذلك المولود وما شأنه وماذا سيفعل فى الدنيا، وما تاريخه من يوم يولد إلى يوم يموت: وهو أمر لا يستطيع أن يعلمه طبيب.

- وما حكاية كرسى الله الذى تقولون إنه وسع السموات والأرض.. وعرش الله الذى يحمله ثمانية.
- إن عقلك يسع السموات والأرض وأنت البشر الذى لا تذكر.. فكيف لا يسعها كرسى الله..



والأرض والشمس والكواكب والنجوم والمجرات محمولة بقوة الله في الفضاء.. فكيف تعجب لحمل عرش..

- وما هو الكرسى وما العرش؟

- قل لى ما الإلكترون أقل لك ما الكرسى؟ قل لى ما الكهرباء؟ قل لى ما الجاذبية؟ قل لى ما الزمان؟ إنك لا تعرف ماهية أى شيء لتسألنى ما الكرسى وما العرش؟ إن العالم مملوء بالأسرار وهذه بعض أسراره.

- والنملة التى تكلمت فى القرآن وحذرت بقية النمل من قدوم سليمان وجيشه:

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾ (النمل: ١٨)

- لو قرأت القليل عن علم الحشرات الآن لما سألت هذا السؤال.. إن علم الحشرات حافل بدراسات مستفيضة عن لغة النمل ولغة النحل. ولغة النمل الآن حقيقة مؤكدة.. فما كان من الممكن أن تتوزع الوظائف فى خلية من مئات الألوف ويتم التنظيم وتنقل الأوامر والتعليمات بين هذا الحشد الحاشد لولا أن هناك لغة للتفاهم، ولا محل للعجب فى أن نملة عرفت سليمان.. ألم يعرف الإنسان الله؟

- وكيف يمحو الله ما يكتب فى لوح قضائه:



﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾
(الرعد : ٣٩)

أيخطىء ربكم كما نخطى فى الحساب فنمحو ونثبت .. أم يراجع نفسه كما نراجع أنفسنا.

- الله يمحو السيئة بأن يلهمك بالحسنة ويقول فى كتابه:

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ (هود: ١١٤)

ويقول عن عباده الصالحين:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ﴾ (الأنبياء: ٧٣)

وبذلك يمحو الله دون أن يمحو وهذا سر الآية ٣٩ من سورة الرعد التى ذكرتها.

- وما رأيك فى الآية ؟

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات : ٥٦)

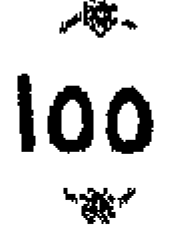
هل كان الله فى حاجة لعبادتنا ؟!

- بل نحن المحتاجون لعبادته.

أتعبد المرأة الجميلة حبا بأمر تكليف، أم أنك تلتذ بهذا الحب وتنتشى وتسعد لتذوقك لجمالها ؟ كذلك الله وهو الأجمل من كل جميل إذا عرفت جلاله وجماله وقدره عبدته، ووجدت فى عبادتك له غاية السعادة والنشوة. إن العبادة عندنا لا تكون



إلا عـن معرفـة.. والله لا يعبـد إلا بالعلم.. ومعرفـة الله هى ذروة المعـارف كلها، ونهاية رحلة طويلة من المعارف تبدأ منذ الميلاد وأول مـا يعـرف الطفل عند ميلاده هو ثدى أمـه، وتلك أول لذة، ثـم يتعرف على أمـه وأبيه وعائلته ومجتمعـه وبيئته، ثم يبدأ فى اسـتغلال هذه البيئـة لمنفعته، فإذا هى ثدى آخـر كبير يدر عليه الثراء والمغانم والملذات، فهو يخرج من الأرض الذهب والماس، ومن البحـر اللآلئ، ومن الزرع الفواكه والثمـار، وتلك هى اللذة الثانيـة فى رحلـة المعرفة. ثم ينتقـل من معرفتـه لبيئته الأرضية ليخرج إلى السموات ويضع رجله على القمر، ويطلق سفائنه إلى المريـخ فى ملاحة نحو المجهول ليسـتمتع بلذة أخرى أكبر هى لذة اسـتطلاع الكون، ثم يرجع ذلك الملاح ليسأل نفسه.. ومن أنا الذى عرفت هذا كله.. ليبدأ رحلة معرفة جديدة إلى نفسـه.. بهدف معرفة نفسه والتحكم فى طاقاتها وإدارتها لصالحه وصالح الآخريـن، وتلك لذة أخرى. ثم تكـون ذروة المعارف بعد معرفة النفـس هـى معرفة الرب الذى خلق تلك النفـس. وبهذه المعرفة الأخيـرة يبلـغ الإنسـان ذروة السـعادات، لأنـه يلتقـى بالكامل المتعال الأجمل من كل جميل.. تلك هى رحلة العابد على طريق العبادة.. وكلها لذات ومسـرات. وإذا كانت فى الحياة مشـقة، فلأن قاطف الورود لابد أن تدمى يديه الأشواك.. والطامع فى ذرى اللانهاية لابد أن يكدح إليها.. ولكن وصول العابد إلى معرفة ربه وانكشاف الغطاء عن عينيه.. ما أروعه.



يقول الصوفى لابس الخرقة: «نحن فى لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف» تلك هى لذة العبادة الحقة.. وهى من نصيب العابد.. ولكن الله فى غنى عنها وعن العالمين.. ونحن لا نعبده بأمر تكليف ولكنا نعبده لأننا عرفنا جماله وجلاله.. ونحن لا نجد فى عبادته ذلا بل تحررا وكرامة.. تحررا من كل عبوديات الدنيا.. تحررا من الشهوات والغرائز والأطماع والمال.. ونحن نخاف الله فلا نعود نخاف أحدا بعده ولا نعود نعبأ بأحد.. خوف الله شجاعة.. وعبادته حرية.. والذل له كرامة.. ومعرفته يقين وتلك هى العبادة..

نحن الذين نجنى أرباحها ومسراتها.. أما الله فهو الغنى عن كل شىء.. إنما خلقنا الله ليعطينا لا ليأخذ منا.. خلقنا ليخلع علينا من كمالاته فهو السميع البصير، وقد أعطانا سمعا وبصرا وهو العليم الخبير، وقد أعطانا العقل لنتزود من علمه، والحواس لنتزود من خبرته وهو يقول لعبده المقرب فى الحديث القدسى: «عبد أطعنى أجعلك ربانيا تقول للشىء كن فيكون»..

ألم يفعل هذا لعيسى عليه السلام.. فكان عيسى يحى الموتى بإذنه ويخلق من الطين طيرا بإذنه ويشفى الأعمى والأبرص بإذنه.

العبودية لله إذن هى عكس العبودية فى مفهومنا.. فالعبودية فى مفهومنا هى أن يأخذ السيد خير العبد، أما العبودية لله فهى على العكس، أن يعطى السيد عبده ما لا حدود له من النعم، ويخلع عليه ما لا نهاية من الكمالات.. فحينما يقول الله:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات : ٥٦)

فمعناها الباطن ما خلقت الجن والإنس إلا لأعطيهم وأمنحهم حبا وخيرا، وكرامة وعزة، وأخلع عليهم ثوب التشريف والخلافة.

فالسيد الرب غنى مستغن عن عبادتنا.. ونحن المحتاجون إلى هذه العبادة والشرف، والمواهب والخيرات التى لا حد لها.

فالله الكريم سمح لنا أن ندخل عليه في أى وقت بلا ميعاد، ونبقى فى حضرته ما شئنا وندعوه ما وسعنا.. بمجرد أن نبسط سجادة الصلاة ونقول «الله أكبر» نصبح فى حضرته نطلب منه ما نشاء. أين هو الملك الذى نستطيع أن ندخل عليه بلا ميعاد و نلبث فى حضرته ما نشاء؟!

وفى ذلك يقول مولانا العبد الصالح الشيخ محمد متولى الشعراوى[٢٢] فى شعر جميل:

حسب نفسى عزا إننى عبد يحتفى بى بلا مواعيد رب
هو فى قدسه الأعز ولكن أنا ألقاه متى وحين أحب

ويقول: أرونى صنعة تعرض على صانعها خمس مرات فى اليوم «يقصد الصلوات الخمس» وتتعرض للتلف وهذه بعض المعانى الباطنة فى الآية التى أثارت شكوكك:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات : ٥٦)

ولو تأملتها لما أثارت فيك إلا الذهول والإعجاب.

(٢٢) الشيخ محمد متولى الشعراوى [١٣٢٩- ١٤١٩هـ - ١٩١١- ١٩٩٨م] إمام الدعاة فى عصرنا الراهن، وصاحب الخواطر المفسرة للقرآن الكريم، والردود على الماديين والملاحدة والعلمانيين.



الفصل الرابع عشر
موقف الدين من التطور

قال صاحبى :

- موقفك اليوم سيكون صعبًا ، فعليك أن تثبت أن خلق الإنسان جاء على طريقة جلا جلا . .

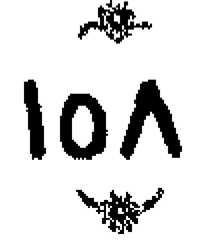
أمسك الخالق قطعة طين ثم عجنها فى يده ونفخ فيها فإذا بها آدم وهو كلام تخالفك فيه بشدة علوم التطور التى تقول : إن صاحبك آدم جاء نتيجة سلسلة من الأطوار الحيوانية السابقة ، وإنه ليس مقطوع الصلة بأفراد عائلته من الحيوانات ، وأنه والقرود أولاد عمومة يلتقون معًا فى سابع جد . .

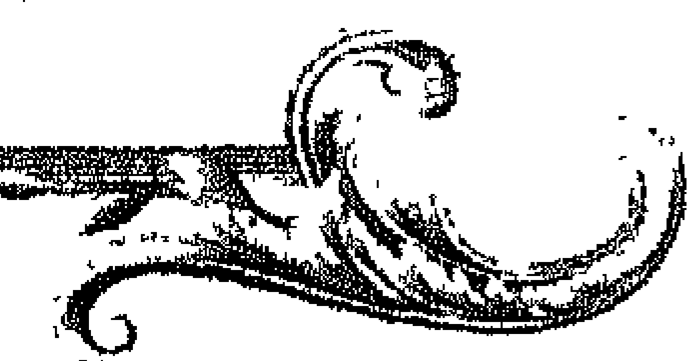
وإن التشابه الأكيد فى تفاصيل البنية التشريحية للجميع يدل على أنهم جميعًا أفراد أسرة واحدة .

قلت وأنا أستعد لمعركة علمية دسمة :

- دعنى أصحح معلوماتك أولا فأقول لك إن الله لم يخلق آدم على طريقة جلا جلا . .

ها هنا قطعة طين ننفخ فيها فتكون آدم . . فالقرآن يروى قصة مختلفة تمامًا عن خلق آدم ، قصة يتم فيه الخلق على مراحل وأطوار وزمن إلهى مديد ، والقرآن يقول إن الإنسان لم يخرج من الطين مباشرة ، وإنما خرج من سلالة جاءت من الطين :





﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾

(المؤمنون: ١٢)

وأن الإنسان فى البدء لم يكن شيئًا يذكر :

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾

(الإنسان: ١)

وأن خلقه جاء على أطوار ..

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾

(نوح: ١٣-١٤)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ (الأعراف: ١١)

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ (ص: ٧١-٧٢)

معنى ذلك أن هناك مراحل بدأت بالخلق ثم التصوير .. ثم التسوية ثم النفخ ..

و﴿ ثُمَّ ﴾ بالزمن الإلهى معناها ملايين السنين :

﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

(الحج: ٤٧)

انظر إلى هذه المراحل الزمنية للخلق فى سورة السجدة ..

يقول الله سبحانه إنه :

﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (السجدة: ٧- ٩)

في البدء كان الطين، ثم جاءت سلالة من ماء مهين هي البدايات الأولى للإنسان التي لم تكن شيئًا مذكورًا، ثم التسوية والتصوير، ثم نفخ الروح التي بها أصبح للإنسان سمع وبصر وفؤاد.. وأصبح آدم.

فآدم إذن نهاية سلسلة من الأطوار وليس بدءًا مطلقًا على طريقة جلا جلا.

﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ (نوح: ١٧)

هنا عملية إنبات بكل ما في الإنبات من أطوار ومراحل وزمن..

ولكن اللغز الحقيقي هو.. ماذا كانت تلك المراحل بالضبط، وماذا كانت تلك الأطوار ؟

هل كل شجرة الحياة من أب واحد ..

هي كلها من الطين بحكم التركيب الكيميائي.. وكلها تنتهي بالموت إلى أصلها الترابي.. هذه حقيقة ..ولكننا نقصد من كلمة أب شيئًا أكثر من الأصل الطيني ..

والسؤال هو: هل تولدت من الطين خلية أولى تعددت وأنجبت كل تلك الأنواع والفصائل النباتية والحيوانية بما في ذلك الإنسان؟







أم أنه كانت هناك بدايات متعددة.. بداية تطورت إلى نباتات، وبداية تطورت إلى فرع من فروع الحيوان، كالإسفنج مثلًا، وبداية أخرى خرج منها فرع آخر كالأسماك، وبداية خرجت منها الزواحف، وبداية خرجت منها الطيور، وبداية خرجت منها الثدييات، وبداية خرج منها الإنسان، وبذلك يكون للإنسان جد منفصل، ويكون لكل نوع جد خاص به؟

إن التشابه التشريحى للفروع والأنواع والفصائل لا ينفى خروج كل نوع من بداية خاصة، وإنما يدل هذا التشابه التشريحى فى الجميع على وحدة الخالق، وأن صانعها جميعًا واحد، لأنه خلقها جميعًا من خامة واحدة وبأسلوب واحد وبخطة واحدة.. هذه هى النتيجة الحتمية.

ولكن خروجها كلها من أب واحد ليس نتيجة محتمة لتشابهها التشريحي.. فوسائل المواصلات تتشابه فيما بينها العربة والقطار والترام والديزل كلها تقوم على أسس هندسية وتركيبة متشابهة، دالة بذلك على أنها جميعًا من اختراع العقل البشرى.. ولكن هذا لا يمنع أن كل صنف منها جاء من أب مستقل ومن فكرة هندسية مستقلة..

كما أننا لا يصح أن نقول إن عربة اليد تطورت تلقائيًا بحكم القوانين الباطنة فيها إلى عربة حنطور، ثم إلى عربة فورد ثم إلى قطار، ثم إلى ديزل.



فالواقع غير ذلك.. وهو أن كل طور من هذه الأطوار جاء بطفرة ذهنية فى عقل المخترع، وقفزة إبداع فى عقل المهندس، لم يخرج نوع من آخر.. مع أن الترتيب الزمنى قد يؤيد فكرة خروج نوع من نوع..

ولكن ما حدث كان غير ذلك فكل نوع جاء بطفرة إبداعية من العقل المخترع، وبدأ مستقلاً.

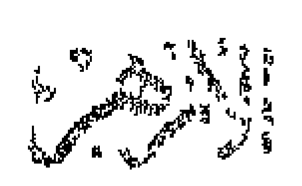
وهذه هى أخطاء داروين(٢٣) والمطبات والثغرات التى وقع فيها حينما صاغ نظريته.

ودعنا نتذكر معًا ما قال داروين فى كتابه «أصل الأنواع»: كان أول ما اكتشفه داروين فى أثناء رحلته بالسفينة «بيجل» هى الخطة التشريحية الواحدة التى بنيت عليها كل الفصائل الحيوانية.. فالهيكل العظمى واحد فى أغلب الحيوانات الفقرية: الذراع فى القرد هو نفس الجناح فى الطائر، هو نفس الجناح فى الخفاش، كل عظمة هنا تقابلها عظمة تناظرها هناك مع تحورات طفيفة، لتلائم الوظيفة، فالعظام فى الطيور رقيقة وخفيفة ومجوفة وهى مغطاة بالريش..

ثم نجد رقبة الزرافة الطويلة بها سبع فقرات، ورقبة الإنسان سبع فقرات، ورقبة القنفذ التى لا تذكر من فرط قصرها هى الأخرى بها سبع فقرات، وهناك خمس أصابع فى يد الإنسان،

(٢٣) داروين ـ تشارليز [١٨٠٩ - ١٨٨٢م] صاحب نظرية النشوء والارتقاء والانتخاب الطبيعي، صاغها فى كتابه [أصل الأنواع].





ونجد نفس التخميس فى أصابع القرد، والأرنب، والضفدعة، والسحلية، وفترة الحمل فى الحوت والقرد والإنسان تسعة أشهر، وفترة الإرضاع فى الجميع سنتان، وفقرات الذيل فى القرد نجدها فى الإنسان متدامجة ملتصقة فيما يسمى بالعصعص، ونجد عضلات الذيل قد تحورت فى الإنسان إلى قاع متين للحوض، ثم نجد القلب بغرفه الأربع فى الحصان والحمار والأرنب والحمامة والإنسان، ونفس الخطة فى تفرع الشرايين والأوردة، ثم نجد نفس الخطة فى الجهاز الهضمى : البلعوم ثم المعدة.. ثم «الاثنى عشر».. ثم الأمعاء الدقيقة.. ثم الأمعاء الغليظة.. ثم الشرج.

والجهاز التناسلى : نفس الخصية، والمبيض، وقنوات الخصية، وقنوات المبيض...

وكذلك الجهاز البولى :

نفس الكلية، والحالب، وحويصلة البول.. والجهاز التنفسى : القصبة الهوائية والرئتين، ونجد أن الرئة فى البرمائيات هى نفس كيس العوم فى السمكة.

كان طبيعيًا بعد هذا أن يتصور داروين أن الحيوانات كلها أفراد أسرة واحدة تفرقت بهم البيئات فتكيفت كل فصيلة مع بيئتها.



الحوت في المنطقة الجليدية لبس معطفًا من الشحم.. والدببة لبست الفراء.

وإنسان الغابة في الشمس الاستوائية اسودّ جلده فأصبح كالمظلة الواقية ليقيه الشمس..

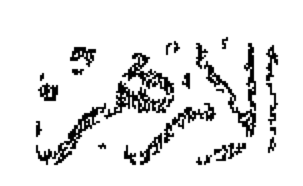
وسحالي الكهوف ضمرت عيونها لأنها لا تجد لها فائدة في الظلام فأصبحت عمياء في حين نجد سحالي البراري مبصرة.. والحيوانات التي نزلت الماء طورت أطرافها إلى زعانف.. والتي غزت الجو طورت أطرافها إلى أجنحة.. وزواحف الأرض طورت أطرافها إلى أرجل.

ثم ألا يحكي الجنين القصة؟ ففي مرحلة من مراحل نموه نراه يتنفس بالخياشيم ثم تضمر الخياشيم وتظهر فيه الرئتان، وفي مرحلة نجد له ذيلًا يضمر الذيل ويختفي، وفي مرحلة نراه يكتسي بالشعر ثم ينحسر بعد ذلك الشعر عن جسمه.

ثم ألا تحكي لنا طبقات الصخور بما حفظت لنا من حفريات قصة متسلسلة الحلقات عن ظهور واختفاء هذه الأنواع الواحد بعد الآخر من الحيوانات البسيطة وحيدة الخلية، إلى عديدة الخلايا، إلى الرخويات، إلى القشريات، إلى الأسماك، إلى البرمائيات، إلى الزواحف، إلى الطيور، إلى الثدييات.

وأخيرًا إلى الإنسان..





ولقد أصاب داروين وأبدع حينما وضع هذه المقدمة القيمة فى التشابه التشريحى بين الحيوانات وأصاب حينما قال بالتطور.

ولكنه أخطأ حينما حاول أن يفسر عملية الارتقاء، وأخطأ حينما حاول أن يتصور مراحل هذا الارتقاء وتفاصيله.

كان تفسير داروين لعملية الارتقاء أنه يتم بالعوامل المادية التلقائية وحدها، حيث تتقاتل الحيوانات بالناب والمخلب فى صراع الحياة الدموى الرهيب فيموت الضعيف ويكون البقاء دائمًا للأصلح..

تلك الحرب الناشبة فى الطبيعة هى التى تفرز الصالح والقوى وتشجعه.. وتبقى على نسله.. وتفسح أمامه سبل الحياة..

وإذا كانت هذه النظرية تفسر لنا بقاء الأقوى فإنها لا تفسر لنا بقاء الأجمل، فإن الجناح المنقوش لا يمتاز بأى صلاحيات مادية أو معاشية عن الجناح الأبيض، وليس أكفأ منه فى الطيران .. وإذا قلنا إن الذكر يفضل الجناح المنقوش، فى التزاوج، فسوف نسأل ولماذا؟.. ما دام هذا النقش لا يمثل أى مزيد من الكفاءة؟

وإذا دخل تفضيل الأجمل فى الحساب فإن النظرية المادية تنهار من أساسها..

وتبقى النظرية بعد ذلك عاجزة عن تفسير لماذا خرج من عائلة الحمار شىء كالحصان.. ولماذا خرج من عائلة الوعل



شيء رقيق مرهف وجميل كالغزال.. مع أنه أقل قوة وأقل احتمالًا.. كيف نفسر جناح الهدهد وريشة الطاووس وموديلات الفراش بألوانها البديعة ونقوشها المذهلة.. ونحن هنا أمام يد مصور فنان يتفنن ويبدع.. ولسنا أمام عملية غليظة كصراع البقاء وحرب المخلب والناب..

والخطأ الثانى فى نظرية التطور جاء بعد ذلك من أصحاب نظرية الطفرة..

والطفرات هى الصفات الجديدة المفاجئة التى تظهر فى النسل نتيجة تغيرات غير محسوبة فى عملية تزاوج الخلية الأنثوية والخلية الذكرية ولقاء الكروموسومات لتحديد الصفات الوراثية..

وأحيانًا تكون هذه الصفات الجديدة صفات ضارة كالمسوخ والتشوهات، وأحيانًا تكون طفرات مفيدة للبيئة الجديدة للحيوان كأن تظهر للحيوان الذى ينزل الماء أرجل مبططة.. فتكون صفة جديدة مفيدة..

لأن الأرجل المبططة أنسب للسباحة، فتشجع الطبيعة هذه الصفة وتنقلها إلى الأجيال الجديدة، وتقضى على الصفة القديمة لعدم صلاحيتها، وبذلك يحدث الارتقاء وتتطور الأرجل العادية إلى أرجل غشائية.






وخطأ هـذه النظرية أنها أقامت التطور على أسـاس الطفرات والأخطاء العشوائية.. وأسقطت عملية التدبير والإبداع تمامًا..

ولا يمكن أن تصلح هذه الطفرات العشـوائية أساسًا لما نرى حولنا من دقة وإبداع وإحكام فى كل شيء..

إن البعوضة تضع بيضها في المستنقع.. وكل بيضة تأتى إلى الوجود مزودة بكيسين للطفو..

من أين تعلمت البعوضة قوانين أرشـميدس(٢٤) لتزود بيضها بهذه الأكياس الطافية؟

وأشـجار الصحارى تنتج بذورًا مجنحة تطير مع الرياح أميالًا وتنتشر فى مساحات واسعة بلا حدود..

مـن أين تعلمـت أشـجار الصحـارى قوانين الحمـل الهوائى تصنع لنفسـها هـذه البذور المجنحة، التى تطيـر مئات الأميال بحثًا عن أراض ملائمة للإنبات؟

وهـذه النباتـات المفترسـة التـى تصطنـع لنفسـها الفخاخ والشراك الخداعية العجيبة لتصيد الحشرات وتهضمها وتأكلها فأى عقل استطاعت أن تصطنع تلك الحيل؟

نحـن هنا أمام عقل كلى يفكر ويبتكـر لمخلوقاته ويبدع لها أسباب الحيل.. لا يمكن تصور حدوث الارتقاء بدون هذا العقل المبدع:

(٢٤) أرشـميدس [٢٨٧-٢١٥ ق.م] عالـم يونانـى ولد فى صقلية وهو مكتشـف الوزن النوعي، المشهور قاعدة أرشميدس.



﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه : ٥٠)

والعقبة الثالثة أمام نظرية داروين.. هي ما اكتشفناه الآن باسم الخريطة الكروموسومية.. أو خريطة الجينات.. ونحن نعلم الآن أن لكل نوع حيواني خريطة كروموسومية خاصة به، ويستحيل أن يخرج نوع من نوع بسبب اختلاف هذه الخريطة الكروموسومية.

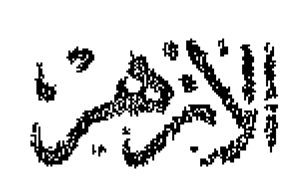
نخلص من هذا إلى أن نظرية داروين تعثرت.. وإذا كان التشابه التشريحي بين الحيوانات حقيقة متفق عليها، وإذا كان التطور أيضًا حقيقة، فإن مراحل هذا التطور وكيفياته ما زالت لغزًا.

هل كانت هناك بدايات مستقلة أم أن بعض الفروع تلتقي عند أصول واحدة ؟

والتطور وارد باللفظ الصريح في القرآن.. كما أن مراحل الخلق والتصوير والتسوية ونفخ الروح واردة..

ولكن لم يستقر العلم على نظرية ثابتة لتلك المراحل بعد.. وإذا عدنا لسورة السجدة التي تحكي عن الله أنه:

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة: ٧ - ٩)



فـإن معنى الآية صريـح فى أن البدايات الأولى للإنسـان التى جاء منها آدم فيما بعد، وهى تلك التى جاء نسلها من ماء مهين، لم يكن لها سمع ولا أبصار ولا أفئدة..

وإنما جاءت هذه الأبصار والأسـماع والأفئدة بعد نفخ الروح وهى آخر مراحل خلق آدم..

هى إذن بدايات أشبه بالحياة الحيوانية المتخلفة :

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾

(الإنسان: ١)

هو تفسـير لا يختلف كثيرًا عن العلـوم التى تتحدث عنها.. ولكـن نفـس الآية قد تعنـى معنى آخر هـو أطـوار الجنين داخل الرحـم وكيـف يتخلـق مـن بدايـات لا سـمع فيهـا ولا بصر ثم يأتـى نفخ الـروح فى هـذه المضغة فى الشـهر الرابع فتسـتوى خلقًـا آخر .. آيات الخلق إذن متشـابهات والقـرآن يحمل أكثر مـن وجـه مـن وجـوه التفسـير.. والحقيقـة بعـد هذا مـا زالت لغزًا.. ولا يستطيع أحد أن يدعى أنه كشف الحقيقة.. والسؤال ما زال مفتوحًا للبحث، وكل ما جاء به العلم فروض..

وربما كانت أرجح الآراء أن التسوية المذكورة فى القرآن

﴿ خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾

(الانفطار: ٧-٨)



كانت تسوية سلالية بشيء أشبه بالهندسة الوراثية وأن الأمر ليس تطورًا كما يقول داروين ولكنه تطوير يحدث بتدخل وفعل إلهي لإعداد الحشوة الحية (وهي في أصل المنشأ من الطين) لتستقبل نفخة الروح وحلول النفس فيها لتكون آدم..

ثم النفس وحكايتها هي سؤال آخر أكثر ألغازًا..

هل يكون للنفس تصوير في القوالب الطينية فتكون لها تجسدات متعداة وتاريخ وتطور هي الأخرى؟

أم أنها على حالها من علم الله بها منذ الأزل..

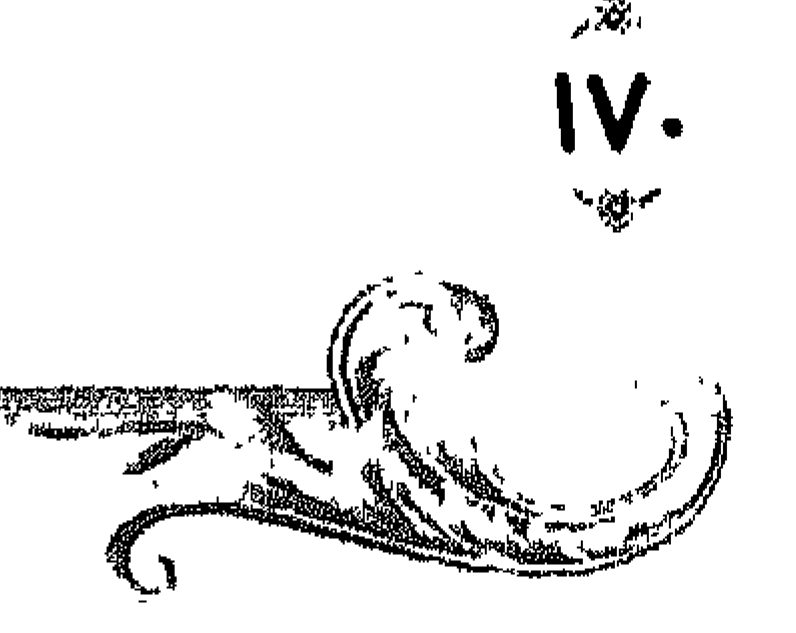
الله أعلم.. والموضوع كله عماء..

وربما كان أفضل فهم لعملية التطور أنها كانت تطويرًا بفعل فاعل وبذات مبدعة خلّاقة ولم تكن تطورًا تلقائيًا كما تصورها داروين وصحبه ولم تكن مراحل متروكة للصدفة.. وإنما كانت تخليقًا مرادًا ومخططًا لخالق قادر حكيم.. وإنها هندسة وراثية لمهندس عظيم ليس كمثله شيء..

وما جاء في القرآن هو أصدق صورة لما حدث..

والقطع في هذه القضية مستحيل..

وما زال القرآن يفرض نفسه بلا بديل ..



الفصل الخامس عشر
كلمة لا إله إلا الله

قال صاحبى :

- ألست معى فى أنكم تبالغون كثيرًا فى استخدام كلمة لا إله إلا الله وكأنها مفتاح لكل باب .. تشيعون بها الميت وتستقبلون الوليد وتطبعونها على الأختام وتنقشونها على القلائد وتصكون بها العملات وتعلقونها على الجدران .. من ينطق بها منكم تقولون أن جسمه أعتق من النار .. فإذا نطق بها مائة ألف مرة دخل الجنة وكأنها طلسم سحرى أو تعويذة لطرد الجن أو قمقم لحبس المردة .. ثم هذه الحروف التى لا تعرفون لها معنى .. الم .. كهيعص .. طسم .. حم .. الر .

هل أنجو من العذاب إذا قلت لا إله إلا الله .. إذن فإنى أقولها وأشهدك وأشهد الحضور على ذلك .. لا إله إلا الله .. هل انتهى الأمر ؟ .

- بل لم تقل شيئًا .

إن لا إله إلا الله لمن يعمل بها ، وليست لمن يشقشق بها لسانه ، لا إله إلا الله منهج عمل وخطة حياة وليست مجرد حروف .. ودعنا نفكر قليلًا فى معناها .. إننا حينما نقول لا إله إلا الله نعنى أنه لا معبود إلا الله وبين لا وإلا بين النفى والإثبات



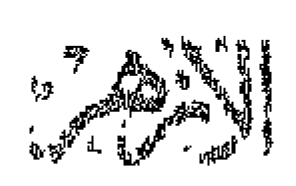
فى العبارة بين هاتين الدفتين تقع العقيدة كلها لا النافية تنفى الألوهية عن كل شىء.. عن كل ما نعبد من مشتهيات فى الدنيا.. عن المال والجاه والسلطان واللذات وترف العيش والنساء الباهرات والعز الفاره.. لكل هذا نقول لا.. لا نعبدك.. لست إلهًا.. ثم نقول لا لنفوسنا التى تشتهى تلك الأشياء لأن الإنسان يعبد نفسه فى العادة ويعبد رأيه ويعبد هواه واختياره ومزاجه ويعبد ذكاءه ومواهبه وشهرته ويتصور أن بيده مقاليد الأمور وأقدار الناس والمجتمع.. ويجعل من نفسه إلهًا دون أن يدرى.. لهذه النفس نحن نقول لا.. لا نعبدك.. لست إلهًا.

نقول: (لا) ـ للمدير والرئيس والحاكم.. لا لست إلهًا.

ومعنى كلمة «إله» أى «فاعل».. والفاعل بحق عندنا هو الله، أما كل هذه الأشياء فوسائط وأسباب، المدير والوزير والرئيس والمال والجاه والسلطان والنفس بذكائها ومواهبها.. لكل هذا نقول لا.. لست إلهًا.

«إلا» ـ واحد نستثنيه ونثبت له تلك الفاعلية والقدرة هو الله.

وبين لا وإلا بين هذا النفى وهذا الإثبات تقع العقيدة كلها فمن كان مشغولاً بجمع المال وتكديس الثروات وتملق السلطان والتزلف للرؤساء وتحرى اللذات واتباع هوى نفسه وتعشق رأيه والتعصب لوجهة نظره.. فهو لم يقل لا لكل هذه المعبودات



وهو ساجد في محرابها دون أن يدرى وحينما يقول لا إله إلا الله فهو يقولها كاذبًا.. يقول بلسانه ما لا يفعل بيديه ورجليه.

ومعنى «لا إله إلا الله» أنه لا حسيب ولا رقيب إلا الله.. هو وحده الجدير بالخشية والخوف والمراقبة.. فمن كان يخاف المرض ومن كان يخاف الميكروب ومن كان يخاف عصا الشرطي وجند الحاكم فإنه لم يقل «لا».. لكل تلك الآلهة الوهمية.. وإنما هو مازال ساجدًا لها وقد أشرك مع خالقه كل تلك الآلهة المزيفة.. فهو كاذب في كلمة «لا إله إلا الله».

ومعنى ذلك أن «لا إله إلا الله» عهد ودستور ومنهج حياة. والمقصود بها.. العمل بها.

فمن عمل بها كانت له طلسمًا بالفعل يفتح له كل الأبواب العصية.. وكانت نجاة في الدنيا والآخرة ومدخلًا إلى الجنة.

أما نطق اللسان بدون تصديق القلب وعمل الجوارح.. فإنه لا يغني. و «لا إله إلا الله» تعني أكثر من هذا تعني موقفًا فلسفيًا.

يقول الدكتور زكي نجيب محمود[٢٥]: إن «شهادة لا إله إلا الله» تتضمن الإقرار بثلاث حقائق.. أن الشاهد موجود والمشهود موجود.. والحضور الذين تلقى أمامهم الشهادة موجودون أيضًا

(٢٥) د. زكي نجيب محمود [١٣٢٣-١٤١٣هـ - ١٩٠٥-١٩٩٣م] من كبار أساتذة الفلسفة الوضعية ـــ الوضعية المنطقية- توجه في سنوات عمره الأخيرة إلى التراث العربي والفكر الإسلامي.





أى أنها إقرار صريح بأن ذات الشاهد والله والآخرين لهم جميعًا وجود حقيقى.

وبهذا يرفض الإسلام الفلسفة المثالية كما يرفض الفلسفة المادية فى ذات الوقت.. يرفض اليمين واليسار معًا ويختار موقفًا وسطا.

يرفض المثالية الفلسفية.. لأن المثالية الفلسفية لا تعترف بوجود الآخرين ولا بوجود العالم الموضوعى كحقيقة خارجية مستقلة عن الذات العارفة.. وإنما كل شيء فى نظر الفلسفة المثالية يجرى كأنه حلم فى دماغ.. أو أفكار في عقل.. أنت والراديو والشارع والمجتمع والصحيفة والحرب كلها حوادث ومرائى وأحلام تجرى فى عقليّ.. لا وجود حقيقى للعالم الخارجى.

وهذا الموقف المثالى المتطرف يرفضه الإسلام وترفضه الشهادة لأنها كما قلنا إقرار صريح بأن الشاهد والمشهود والحضور الذين تلقى أمامهم الشهادة أى الذات والله والآخرين حقائق مقررة.

كما يرفض الإسلام أيضًا الفلسفة المادية لأن الفلسفة المادية تعترف بالعالم الموضوعى ولكنها تنكر ما وراءه.. تنكر الغيب والله.

والإسلام بهذا يقدم فلسفة واقعية وفكرًا واقعيًا فيعترف بالعالم الموضوعى ثم يضيف إلى هذا العالم كل الثراء الذى يتضمنه الوجود الإلهى الغيبى.. ويقدم تركيبًا جدليًا جامعًا بين



فكر اليمين وفكر اليسار فى فلسفة جامعة ما زالت تتحدى كل اجتهاد المفكرين فتسبق ما سطروا من نظريات ظنية لا تقوم على يقين.

شهادة «لاإله إلا الله» تعنى إذن منهج حياة وموقفًا فلسفيًا، وسلوكا أخلاقيا.

ولهذا فأنت تكذب وأنت الرجل الماديّ الذى اخترت موقفًا فلسفيًا ماديًا وأنت تنطق بالشهادة كذبتين :

الكذبة الأولى ـ أنك تشهد بما ينافى فلسفتك.

والكذبة الثانية ـ أنك لا تعمل بهذه الشهادة فى حياتك قدر خردلة.

أما حكاية.. الم.. وكهيعص . حم . الر . فدعنى أسألك.. وما حكاية س ص ولوغاريتم ومعادلة الطاقة ط = ك × س^{٢} وهى ألغاز وطلاسم بالنسبة لمن لا يعرف شيئًا فى الحساب والجبر والرياضيات.. وعند العالمين لها معانى خطيرة.

كذلك هذه الحروف حينما يكشف لنا عن معناها.

قال صاحبى فى سخرية :

– وهل كشف لك عن معناها ؟

قلت وأنا ألقى بالقنبلة :

– هذا موضوع مثير يحتاج إلى كلام آخر طويل سوف يدهشك.



الفصل السادس عشر

كـهـيـعـص

قلت لصديقي الملحد :

- لا شك أن هذه الحروف المقطعة في أوائل السور قد صدمتك حينما طالعتها لأول مرة.. هذه الحم، طسم، الم، كهيعص، ق، ص.. ترى ماذا قلت لنفسك وأنت تقرأها؟
اكتفى بأن يمط شفتيه في لا مبالاة ويقول في غمغمة مبتورة :

- يعني.

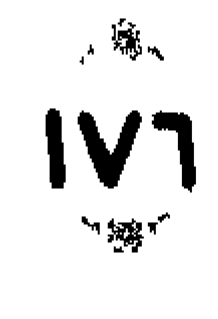
- يعني ماذا.

- يعني.. أي كلام يضحك به النبي عليكم.

- حسنًا دعنا نختبر هذا الكلام الذى تدعى أنه كلام فارغ والذى تصورت أن النبي يضحك به علينا.

ودعنا نأخذ سورة صغيرة بسيطة من هذه السور.. سورة ق مثلاً.. ونجرى تجربة.. فنعدُ ما فيها من قافات وسنجد أن فيها ٥٧ قافًا.. ثم نأخذ السورة التالية وهى سورة الشورى وهى ضعفها في الطول وفى فواتحها حرف ق أيضًا.. وسنجد أن فيها هى الأخرى ٥٧ قافًا.

هل هى مصادفة.. لنجمع ٥٧ + ٥٧ = ١١٤ عدد سور القرآن.. هل تذكر كيف تبدأ سورة ق.. وكيف تختتم.. في بدايتها



﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ (ق : ١)

وفى ختامها..

﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق : ٤٥)

.. وكأنما هى إشارات بأن ق ترمز للقرآن..

(ومجموع القافات ١١٤ وهى مجموع سور القرآن).

قال صاحبى في لا مبالاة :

– هذه أمور من قبيل المصادفات

قلت فى هدوء :

– سنمضى فى التجربة ونضع سور القرآن فى العقل الإلكترونيّ ونسأله أن يقدم لنا إحصائية بمعدلات توارد حرف القاف فى جميع السور.

قال وقد توترت أعصابه وتيقظ تمامًا :

– وهل فعلوها؟

قلت فى هدوء :

– نعم فعلوها .

– وماذا كانت النتيجة ؟

– قال لنا العقل الإلكترونىّ: إن أعلى المتوسطات والمعدلات موجودة فى سورة ق وأن هذه السورة قد تفوقت حسابياً على كل المصحف فى هذا الحرف.. هل هى مصادفة أخرى؟



- غريب .

- سورة الرعد تبدأ بالحرف «ا ل م ر» قدم لنا العقل الإلكترونىّ احصائية بتوارد هذه الحروف فى داخل السور كالآتى :

أ : ترد ٦٢٥ مرة .

ل : ترد ٤٧٩ مرة .

م : ترد ٢٦٠ مرة .

ر : ترد ١٣٧ مرة .

هكذا وفى ترتيب تنازلى «أ ثم ؛ ل ثم ؛ م ثم ؛ ر» .. بنفس الترتيب الذى كتبت به «ا ل م ر» تنازليًا ثم قام العقل الإلكترونىّ بإحصاء معدلات توارد هذه الحروف فى المصحف كله .. وألقى إلينا بالقنبلة الثانية .. أن أعلى المعدلات والمتوسطات لهذه الحروف هى فى سورة الرعد .. وأن هذه السورة تفوقت حسابيًا فى هذه الحروف على جميع المصحف .

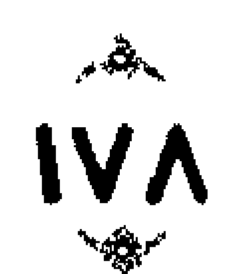
نفس الحكاية فى «ا ل م» البقرة .

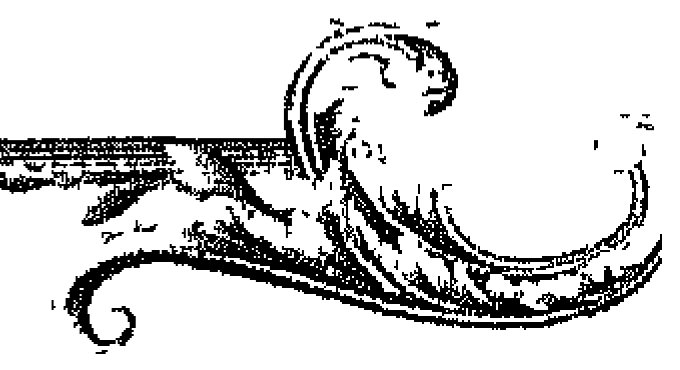
أ : وردت ٤٥٩٢ مرة .

ل : وردت ٣٢٠٤ مرات .

م : وردت ٢١٩٥ مرة .

بنفس الترتيب التنازلى «ا ل م» .





ثم يقول لنا العقل الإلكترونىّ : إن هذه الحروف الثلاثة لها تفوق حسابى على باقى الحروف فى داخل سورة البقرة .

نفس الحكاية فى «ا ل م» سورة آل عمران .

أ : وردت ٢٥٧٨ مرة .

ل : وردت ١٨٨٥ مرة .

م : وردت ١٢٥١ مرة .

بنفس الترتيب التنازلى «أ ل م» وهى تتوارد فى السورة بمعدلات أعلى من باقى الحروف .

نفس الحكاية «ا ل م» سورة العنكبوت .

أ : وردت ٧٨٤ مرة .

ل : وردت ٥٥٤ مرة .

م : وردت ٣٤٤ مرة .

بنفس الترتيب التنازلى «أ ل م» وهى تتوارد فى السورة بمعدلات أعلى من باقى الحروف .

نفس الحكاية فى «أ ل م» سورة الروم .

أ : وردت ٥٤٧ مرة .

ل : وردت ٣٩٦ مرة .

م : وردت ٣١٨ مرة .





بنفس الترتيب «أ ل م» ثم هى تتوارد فى السورة بمعدلات أعلى من باقى الحروف .

وفى جميع السور التى ابتدأت بالحروف «أ ل م» نجد أن السور المكية تتفوق حسابياً فى معدلاتها على باقى السور المكية ، والمدنية تتفوق حسابيًا فى معدلاتها من هذه الحروف على باقى السور المدنية .

وبالمثل فى «أ ل م ص» سورة الأعراف .

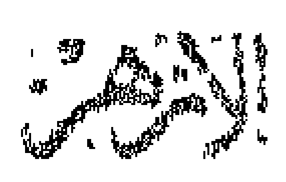
يقول لنا العقل الإلكترونىّ : إن معدلات هذه الحروف هى أعلى ما تكون فى سورة الأعراف ، وأنها تتفوق حسابيًا على كل السور المكية فى المصحف .

وفى سورة «طه» نجد أن الحرف (طـ) والحرف (هـ) يتواردان فيها بمعدلات تتفوق على كل السور المكية . . وكذلك فى كهيعص مريم ترتفع معدلات هذه الحروف على كل السور المكية فى المصحف .

كما نجد أن جميع السور التى افتتحت بالحروف حم . . إذا ضم بعضها إلى بعض فإن معدلات توارد الحرف (ح) والحرف (م) تتفوق على كل السور المكية فى المصحف .

وبالمثل السورتان اللتان افتتحتا بحرف (ص) وهما سورة ص والأعراف «أ ل م ص» ويلاحظ أنهما نزلتا متتابعتين فى





الوحــى.. إذا ضمتا معاً تفوقتا حسـابياً فى هـذه الحروف على باقى المصحف.

وكذلك الســور التى افتتحــت بالحروف «أ ل ر» وهى إبراهيم ويونــس وهــود ويوســف والحجــر وأربع منهــا جــاءت متتابعة فــى تواريخ الوحى.. إذا ضــم بعضها إلى بعــض.. أعطانا العقل الإلكترونىّ أعلى معدلات فى نسـبة تـوارد حروفها «أ ل م ر» من كل السور المكية فى المصحف.

أما فى ســورة «يس» فإننا نلاحــظ أن الدلالة موجودة ولكنها انعكســت.. لأن ترتيب الحروف انعكس؛ فالياء فى الأول يـس «بعكس الترتيب الأبجدى».

ولهذا نرى أن توارد الحرف (ى) والحرف (س) فى الســورة هو أقل من تـوارده فى جميع المصحف مدنيًا ومكـيًا.

فالدلالة الإحصائية هنا موجودة ولكنها انعكست.

كان صاحبى قد سكت تمامًا.

قلت وأنا أطمئنه :

– أنا لا أقول هذا الكلام من عند نفســى وإنما هى دراسـة قام بها عالم مصرىّ فى أمريكا..

وقدمت إليه هذا الكتاب الذى طبع فى أمريكا.

أخذ صاحبى يقلب الكتاب فى صمت.



قلت :

- لم تعد المسألة مصادفة.. وإنما نحن أمام قوانين محكمة وحروف محسوبة كل حرف وضع بميزان ورحت أتلو عليه من سورة الشورى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ (الشورى : ١٧)

وأى ميزان.. نحن هنا أمام ميزان يدق حتى يزن الشعرة والحرف.. أظن أن فكرة النبى الذى يؤلف القرآن ويقول لنفسه سلفاً سوف أؤلف سورة الرعد من حروف أ ل م ر وأورد بها أعلى معدلات من هذه الحروف على باقى الكتاب وهو لم يؤلف بعد الكتاب مثل هذا الظن لم يعد جائزًا.. وأين هذا الذى يحصى له هذه المعدلات وهى مهمة لا يستطيع أن يقوم بها إلا عقل إلكترونى ولو تكفل هو بها فإنه سيقضى بضع سنين ليحصى الحروف فى سورة واحدة يجمع ويطرح بعلوم عصره وهولا يعرف حتى علوم عصره وهو سيؤلف أو يشتغل عدادًا للحروف.

نحن هنا أمام استحالة.

فإذا عرفنا أن القرآن نزل مفرقًا ومقطعًا على٢٣ سنة ..

فإنا سوف نعرف أن وضع معدلات إحصائية مسبقة بحروفه هى استحالة أخرى.. وأمر لا يمكن أن يعرفه إلا العليم الذى يعلم كل شىء قبل حدوثه والذى يحصى بأسرع وأدق من كل



العقـول الإلكترونيـة.. الله الذى أحـاط بكل شـيء علمًا.. وما هـذه الحروف المقطعة فى فواتح السـور إلا رمـوز علمه بثها فى تضاعيف كتابه لنكشفها نحن على مدى الزمان.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت- ٥٣)

ولا أقول أن هذه كل أسـرار الحروف.. بل هى مجرد بداية لا أحد يدرى إلى أى آفاق سوف توصلنا.

وهـذه الحروف بهـذه الدلالة الجديـدة تنفى نفيًا باتًا شـبهة التأليف.

ثـم هى تضعنا أمام موازيـن دقيقة ودلالات عميقة لكل حرف فلا يجرؤ أحدنا أن يقول إنه أمام.. أى كلام.. ألا ترى يا صاحبى أنك أمام كلام لا يمكن أن يكون أى كلام.

ولـم يجـب صاحبى، وإنمـا ظل يقلـب الكتـاب الإنجليزى ويتصفحه ثم يعود فيقلبه دون أن ينطق بحرف.

بقي أن أضيف شيئا.. للأسف غريبا ومحزنا.. فالرجل الذى بحث فى هذا الأسرار (رشاد خليفة) فقد عقله فى النهاية واختل تفكيره وتصور أنه نبى ملهم.. ومات فى أمريكا مقتولا.. وأغلق ملف هذه الأسرار إلى الأبد[٢٦].

(٢٦) من الدراسـات التى سبقت رشاد خليفة فى الكشف عن أسرار إعجاز وحروف أوائل السور كتاب [حروف أوائل السور] للدكتورة تحية عبد العزيز إسماعيل.



الفصل السابع عشر
المعجـزة

قال صاحبى :

لا أفهـم كيـف يجوز للرب الرحيم الـذى تصفونه بأنه رءوف ودود كريـم عفـو غفـور.. كيـف يأمر هـذا الرب نبيـه الخليل المقـرب إبراهيم بأن يذبـح ولده.. ألا ترى معي أن هذه مسـألة صعبة التصديق؟

- القصة تدل من سـياقها وأحداثها علـى أن مراد الله من إبراهيم لم يكن ذبح ابنه، بدليل أن الذبح لم يحدث وإنما كان المراد أن يذبح إبراهيم شـغفه الزائد بابنـه.. ومحبته الزائدة لابنه.. وتعلقـه الزائد بابنـه إذ لا يجوز أن يكون فـى قلب النبى تعلق بغيـر الله.. لا دنيـا ولا ولـد ولا جـاه ولا سـلطان.. كل هـذه الأمـور لا يصح أن يتعلق بها قلب النبي.. وكما هو معلوم كان إسـماعيل قد جاء لأبيـه إبراهيم على كبر وعلى شـيخوخة.. فشغف به الشيخ وتعلق به.. فجاء امتحان الله لنبيه ضروريًا.. ومـا حدث في القصة يدل على سـلامة هذا التفسـير.. فما إن صدع النبى لأمر ربه وأشـرع سـكينه ليذبح ولده حتى جاء أمر السماء بالفداء.

- ومـا رأيك فى معجزات إبراهيم العجيبـة ودخوله النار دون أن يحتـرق.. وما فعله موسـى من بعـده حينما أخـرج من عصاه





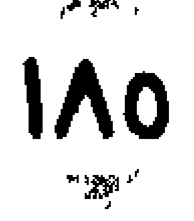
ثعبانًا ثم حينما شق بهذه العصا البحر، ثم حينما أخرج يده من تحت إبطه فإذا هي بيضاء.. ألا تبدو هذه الأمور وكأنها عرض بهلوانى فى سيرك.. وكيف يدلل الله على قدرته وعظمته بهذه البهلوانيات التى هى فى حد ذاتها صنوف من اللا معقول.. وأمثلة من خرق النظام.. ألا يبدو أن البرهان الأقوى على عظمة الله هو النظام والعقل والانضباط والقوانين فى سريانها الجميل فى الكون دون أن تخرق..

– لقد فهمت المعجزة خطأ وتصورتها خطأ.

المعجزة في تصورك عمل بهلوانى وخرق للقانون، ولا معقول، ولكن الحقيقة غير ذلك.

ودعنى أقرِّب الموضوع إلى ذهنك بمثَل.. لو أنه قُدِّر لك أن تعود ثلاثة آلاف سنة إلى الوراء، ثم تدخل على فرعون مصر فى ذلك الزمن البائد ومعك ترانزستور فى حجم علبة الثقاب يتكلم ويغنى من تلقاء نفسه.. ترى ماذا سيكون حال فرعون وحاشيته؟.. سيهتفون فى ذهول بلا شك معجزة..

سحر.. لا معقول.. خرق لجميع القوانين.. ولكننا نعلم الآن أنه لا إعجاز فى الموضوع ولا سحر، ولا خرق لأى قانون.. بل إن ما يحدث فى داخل الترانزستور هو أمر يجرى حسب قوانين فى علم الإلكترونيات.. وإنه معقول تمامًا وسيكون الأمر أعجب لو أنك دخلت على ملك بابل وفى يدك



تليفزيون ينقل الصور من بلاد الروم.. وسوف يصفق ملك آشور عجبًا لو أنك أدرت له أسطوانة بلاستيك فتكلمت. بل إن التاريخ ليحفظ لنا قصة مماثلة حينما نزل المستعمرون أفريقيا.. وحطت أول طائرة لهم في الغابة وسط البدائيين.. ماذا حدث؟ سجد الزنوج العراة على وجوههم ودقوا الطبول وذبحوا القرابين وظنوا أن الله نزل من سماواته وتصوروا فيما يحدث خرقًا لجميع القوانين.. مع أننا نعلم الآن أن الطائرة تطير بقانون وتنزل بقانون.. وأنها مصممة حسب القوانين الهندسية المحكمة، وأن طيرانها أمر معقول تمامًا، وأنها لا تخرق قانون الجاذبية، وإنما تتجاوز هذا القانون بقانون آخر هو قانون الفعل ورد الفعل.. نحن إذن أمام تفاضل قوانين وليس أمام خرق قوانين.. والماء يصعد في ساق النخلة ضد الجاذبية ليس بخرق هذه الجاذبية وإنما بمجموعة قوانين فسيولوجية تتفاضل معها.. هي قانون تماسك العمود المائي وقانون الخاصة الشعرية، وقانون الضغط الأزموزي، وهي جميعها قوانين تؤدي إلى شد الماء إلى أعلى.

نحن دائمًا لا نخرج عن العقل ولا عن المعقول، وما حدث لم يكن بهلوانيات.. وإنما كانت دهشة الزنوج البدائيين مردها جهلهم بهذه القوانين.. وكذلك دهشتك أمام شق موسى للبحر وإخراجه للثعبان من العصا، وإحياء عيسى للموتى، ودخول





إبراهيم للنار بدون أن يحترق.. تصورت أنها لا معقول وخرق للقوانين، وبهلوانيات.. فى حين أنها تجرى جميعها على وفاق المشيئة الإلهية التى تتفاضل مع جميع القوانين التى نعرفها.. وهى إذن صنوف من النظام.. ومن المعقول.. ولكن أعلى من مداركنا والله لا يهدم النظام بهذه المعجزات، وإنما يشهدنا على نظام أعلى، وقوانين أعلى، وعقل أكبر من استيعابنا، ومشيئة أعلى من ذلك كله.

وقد وقع البهائيون فى نفس غلطتك حينما رفضوا المعجزات، وتصوروا أن قبولها فيه امتهان للعقل، وازدراء بالعقل، فتحايلوا على القرآن وحرّفوا معانيه عن ظاهرها، فموسى لم يشق البحر بعصاه، وإنما كانت عصاه هى الشريعة التى فرقت الحق من الباطل، وبالمثل كانت يده البيضاء هى رمز ليد الخير.. وبالمثل أحيا عيسى النفوس ولم يحى الأجساد.. وفتح العقول ولم يفتح العيون العمى.. وبهذا أخرجوا القرآن عن معانيه الحرفية إلى تأويلات وتفسيرات مجازية ورمزية كلما اصطدموا بشيء لم يعقلوه.

وكان هذا لأنهم أخطأوا فهم المعجزة وتصوروا أنها لا معقول، وخرق للقانون، وهدم للنظام، وهو نفس ما وقعت فيه.

والحق أننا نعيش فى عصر لم تعد تستغرب فيه المعجزات.



وقد رأينا العلم يأخذ بيدنا إلى سطح القمر ، وإذا كان العلم البشرى أعطانا كل هذا السلطان ، فالعلم الإلهى اللدنى لا شك يمكن أن يمدنا بسلطان أكبر . . استمع إلى هذه الآية الجميلة :

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ (الرحمن : ٣٣)

وهذا هو السلطان . . العلم البشرى . . وأعظم منه العلم الإلهى .

***



الفصل الثامن عشر
معنى الدين

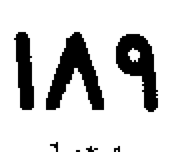
قال صاحبى :

– اسمع .. إذا كانت عندكم جنة كما تقولون .. فأنا أول واحد سوف يدخلها فأنا أكثر دينا من كثير من دعاتكم من أصحاب اللحى والمسابح إياهم ..

– أكثر دينًا .. ماذا تعنى بهذا ؟

– أعنى أنى لا أؤذى أحدًا ولا أسرق ، ولا أقتل ، ولا أرتشى ، ولا أحسد ، ولا أحقد ، ولا أضمر سوءًا لمخلوق ، ولا أنوى إلاّ الخير ، ولا أهدف إلاّ إلى النفع العام .. أصحو وأنام بضمير مستريح وشعار حياتى هو الإصلاح ما استطعت .. أليس هذا هو الدين ؟ ألا تقولون عندكم إن الدين المعاملة ؟ ..

– هذا شىء له اسم آخر .. اسمه حسن السير والسلوك .. وهو من مقتضيات الدين ولكنه ليس الدين ، إنك تخلط بين الدين وبين مقتضاياته .. والدين ليس له إلا معنى واحد هو معرفة الإله .. أن تعرف إلهك حق المعرفة ، ويكون بينك وبين هذا الإله سلوك ومعاملة .. أن تعرف إلهك عظيمًا جليلًا قريبًا مجيبًا يسمع ويرى فتدعوه راكعًا ساجدًا خاشعًا خشوع العبد للرب .. هذه المعاملة الخاصة بينك وبين الرب هى الدين ..



أما حسن معاملتك لإخوانك فهى من مقتضيات هذا التدين وهى فى حقيقة الأمر معاملة للرب أيضًا.

يقول نبينا ﷺ: «إن الصدقة تقع فى يد الله قبل أن تقع فى يد السائل».

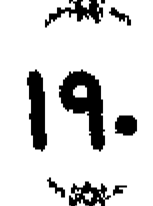
فمن أحب الله أحب مخلوقاته وأحسن إليها.. أما إذا اقتصرت معاملاتك على الناس لا تعترف إلا بهم ولا ترى غيرهم.. ولا ترى غير الدنيا فأنت كافر تمامًا وإن أحسنت السير والسلوك مع هؤلاء الناس.. إنما يدل حسن سيرك وسلوكك على الفطانة والسياسة والكياسة والطبع اللبيب وليس على الدين فأنت تريد أن تكسب الناس لتنجح فى حياتك، وحسن سيرك وسلوكك ذريعة إلى كسب الدنيا فحسب.. وهذه طباع أكثر الكفار أمثالك.

- صدقنى أنا أشعر أحيانًا بأن هناك قوة..

- قوة!

- نعم.. ثمة قوة مجهولة وراء الكون.. أنا أؤمن تمامًا بأن هناك قوة..

- وما تصورك لهذه القوة.. أتتصورها كائنًا يسمع ويرى ويعقل ويتعهد مخلوقاته بالرعاية والهداية، وينزل لهم الكتب ويبعث لهم الرسل ويستجيب لصرخاتهم وتوسلاتهم؟



- بصراحة أنا لا أصدق هذا الكلام ولا أتصوره، وأكثر من هذا أراه ساذجًا لا يليق بهذه القوة العظيمة..

- إذن فهي قوة كهرمغناطيسية عمياء تسوق الكون في عبثية لا خلاق لها.. وهذه هي الصفة التي تليق بقوتك العظيمة..

- ربما..

- بئس ما تصورت إلهك.. خلق لك البصر فتصورته أعمى.. وخلق لك الرشد فتصورته عابثًا أخرق.. والله إنك الكافر بعينه، ولو أحسنت السير والسلوك مدى الدهر.. وإنّ أعمالك الصالحة مصيرها الإحباط يوم الحساب وأن تتبدد هباءً منثورًا..

- ألا يكون هذا ظلمًا ؟!.

- بل هو عين العدل.. فقد تصورت هذه الأعمال من ذاتك ليس وراءها الهادى الذى هداك والرشيد الذى أرشدك فظلمت إلهك.. أنكرت فضله.. وهذا هو الفرق بين طيبات المؤمن وطيبات الكافر، إذا استوى الاثنان فى حسن السير والسلوك الظاهر.. فكلاهما قد يبنى مستشفى لعلاج المرضى.. فيقول الكافر : أنا بنيت هذا المستشفى العظيم للناس..

ويقول المؤمن : وفقنى ربى إلى بناء هذا المستشفى للناس وما كنت إلا واسطة خير.. وما أكبر الفرق.. واحد أسند الفضل



لصاحب الفضل ولم يبق لنفسه فضلًا إلا مجرد الوساطة وحتى هذه يشكر عليها الله ويقول : أحمدك يا ربى أن جعلتنى سببًا . . والآخر أسند الفضل لنفسه وراح يقول : أنا . . أنا . . أنا كل شيء . . فارق كبير بين الكبرياء والتواضع . . وبين العلو وخفض الجناح . . بين الجبروت والوداعة . . ولهذا فأنتم فى ديانتكم الوثنية وإيمانكم بهذه القوة الكهرمغنطيسية العمياء لا تصلون ولا تسجدون . .

- ولماذا نصلى ولمن نصلى . . ؟ إنى لا أرى لصلاتكم هذه أى حكمة . . ولماذا كل تلك الحركات أما كان يكفى الخشوع ؟ !

- حكمة الصلاة أن يتحطم هذا الكبرياء المزيف الذى تعيش فيه لحظة سجودك وملامسة جبهتك التراب وقولك بلسانك وقلبك : « سبحان ربى الأعلى » . . وقد عرفت مكانك أخيرًا وأنك أنت الأدنى وهو الأعلى . . وأنك تراب على التراب . . وهو ذات منزهة من فوق سبع سماوات .

أما لماذا الحركات في الصلاة ، ولماذا لا نكتفى بالخشوع القلبى فإنى أسألك بدورى :

ولماذا خلق لك الجسد أصلًا . . ولماذا لا تكتفى بالحب الشفوى فتريد أن تعانق وتقبل . . لماذا لا تكتفى بالكرم الشفوى فتجود باليد والمال . . بل خلق الله لك الجسد إذا كان خشوعك



صادقًا فاض على جسدك فركعت وسجدت.. وإن كان خشوعك زائفًا لم يتعد لسانك..

- هل تعتقد أنك ستدخل الجنة..؟

- كلنا سنرِدُ النار.. ثم ينجى الله الذين اتقوا.. ولا أعرف هل اتقيت أم لا؟.. يعلم هذا علام القلوب.. وكل عملى ـ للأسف ـ حبر على ورق..

وقد يسلم العمل ولا تسلم النية.. وقد تسلم النية ولا يسلم الإخلاص.. فنظن الواحد منا أنه يعمل الخير لوجه الله وهو يعمله للشهرة والدنيا والجاه بين الناس.. وما أكثر ما يخدع الواحد منا فى نفسه ويدخل عليه التلبيس وحسن الظن والاطمئنان الكاذب من حيث لا يدري.. نسأل الله السلامة..

- وهل يستطيع الإنسان أن يكون مخلصًا؟

- لا يملك ذلك من تلقاء نفسه.. وإنما الله هو الذى يخلص القلوب.. ولهذا يتكلم القرآن فى أكثر الآيات عن المخلَصين ـ بفتح اللام ـ وليس المخلِصين بكسر اللام.. ولكن الله وعد بأن ﴿وَيَهْدِيَ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (الشورى: ١٣) أى كل من يؤوب ويرجع إليه.. فعليك بالرجوع إليه.. وعليه الباقى.



الفصل التاسع عشر
فزنا بسعادة الدنيا وفزتم بالأوهام

قال صاحبى.. وكانت فى نبرته فرحة رجل منتصر :

- مهما اختلفنا ومهما طال بنا الجدل فلا شك أننا خرجنا من معركتنا معكم منتصرين فقد فزنا بسعادة الدنيا وخرجتم أنتم ببضعة أوهام فى رؤوسكم.. وماذا يجدى الكلام وقد خرجنا من الدنيا بنصيب الأسد.. فلنا السهرة والسكرة والنساء الباهرات والنعيم الباذخ واللذات التى لا يعكرها خوف الحرام.. ولكم الصيام والصلاة والتسابيح وخوف الحساب.. من الذى ربح ؟

- هذا لو كان ما ربحتموه هو السعادة.. ولكن لو فكرنا معًا فى هدوء لما وجدنا هذه الصورة التى وصفتها عن السهرة والسكرة والنساء الباهرات والنعيم الباذخ واللذات التى لا يعكرها خوف الحرام.. لما وجدنا هذه الصورة إلا الشقاء بعينه.

- الشقاء.. وكيف ؟

- لأنها فى حقيقتها عبودية لغرائز لا تشبع حتى تجوع، وإذا أتخمتها أصابها الضجر والملال وأصابك أنت البلادة والخمول.. هل تصلح أحضان امرأة لتكون مستقر سعادة، والقلوب تتقلب والهوى لا يستقر على حال والغوانى يغرهن الثناء.. وما قرأنا فى قصص العشاق إلا التعاسة فإذا تزوجوا كانت التعاسة أكبر وخيبة الأمل أكبر لأن كلا من الطرفين

سوف يفتقد فى الآخر الكمال المعبود الذى كان يتخيله..
وبعد قضاء الوطر وفتور الشهوة يرى كل واحد عيوب الآخر بعدسة مكبرة.. وهل الثراء الفاحش إلا عبودية إذ يضع الغنى نفسه فى خدمة أمواله وفى خدمة تكثيرها وتجميعها وحراستها فيصبح عبدها بعد أن كانت خادمته.. وهل السلطة والجاه إلا مزلق إلى الغرور والكبر والطغيان.. وهل راكب السلطان إلا كراكب الأسد يوما هو راكبه ويوما هو مأكوله.. وهل الخمر والسكر والمخدرات والقمار والعربدة والجنس بعيدًا عن العيون وبعيدًا عن خوف الحرام سعادة.. وهل هى إلا أنواع من الهروب من العقل والضمير وعطش الروح ومسئولية الإنسان بالإغراق فى ضرام الشهوة وسعار الرغبات.. وهل هو ارتقاء أم هبوط إلى حياة القرود وتسافد البهائم وتناكح السوائم.. صدق القرآن إذ يقول عن الكفار.. أنهم :

﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾

(محمد : ١٢)

فهو لم ينكر أنهم يتمتعون ولكن كما تتمتع الأنعام ـ وكما ترعى السوائم.. وهل هذه سعادة ـ وهل حياة الشهوة تلك إلا سلسلة من الشبق والتوترات والجوع الأكّال والتخمة الخانقة التى لا تمت إلى السعادة الحقة بسبب.. وهل تكون السعادة الحقة إلا حالة من السلام والسكينة النفسية والتحرر الروحى من كافة العبوديات.. وهل هى فى تعريفها النهائى إلا حالة صلح بين الإنسان ونفسه وبين الإنسان والآخرين وبين الإنسان والله..

وهذه المصالحة والسلام والأمن النفسي لا تتحقق إلا بالعمل.. بأن يضع الإنسان قوته وماله وصحته في خدمة الآخرين وبأن يحيا حياة الخير نية وعملًا وأن تتصل العلاقة بينه وبين الله صلاةً وخشوعًا فيزيده الله سكينة ومددًا ونورا.. وهل هذه السعادة إلا الدين بعينه.. ألم يقل الصوفي لابس الخرقة.. نحن في لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف.. والذين عرفوا تلك اللذة.. لذة الصلة بالله والصلح مع النفس.. يعلمون أن كلام الصوفي على حق.

- ألم تكن مثلنا من سنوات تسكر كما نسكر وتلهو كما نلهو وتسعد بهذه السعادة الحيوانية التي نسعد بها وتكتب الكفر بعينه في كتابك الله والإنسان فتسبق به إلحاد الملاحدة فماذا غيرك من النقيض إلى النقيض؟

- لم يكن ما كتبت كفرا.. بل تساؤلا.. وطريقا من الشك المخلص أفضى في النهاية إلى الإيمان بفضل الله وتوفيقه.

- أعلم أنك تقول أن كل شيء بفضل الله.. ولكن ماذا كان دورك.. وماذا كان سعيك؟

- نظرت حولي فرأيت أن الموت ثم التراب نكتة وعبثًا وهزلا ورأيت العالم حولي كله محكمًا دقيقًا منضبطًا لا مكان فيه للهزل ولا للعبث.. ولو كانت حياتي عبثا كما تصور العابثون ونهايتها لا شيء.. فلماذا أبكي ولماذا أندم ولماذا أتحرق



وألتهب شوقًا على الحق والعدل وأفتدى هذه القيم بالدم والحياة.

رأيت النجوم تجرى فى أفلاكها بقانون.. ورأيت الحشرات الاجتماعية تتكلم والنباتات ترى وتسمع وتحس.. ورأيت الحيوانات لها أخلاق.. ورأيت المخ البشرى عجيبة العجائب يتألف من عشرة آلاف مليون خط عصبى تعمل كلها فى وقت واحد فى كمال معجز.. ولو حدث بها عطل هنا أوهناك لجاء فى أثره الشلل والعمى والخرس والتخليط والهذيان وهى أمور لا تحدث إلا استثناء.. فما الذى يحفظ لهذه الآلة الهائلة سلامتها ومن الذى زودها بكل تلك الكمالات.

ورأيت الجمال فى ورقة الشجر وفى ريشة الطاووس وجناح الفراش وسمعت الموسيقى فى صدح البلابل وشقشقة العصافير وحيثما وجهت عينى رأيت رسم رسام وتصميم مصمم وإبداع يد مبدعة.

ورأيت الطبيعة بناءً محكمًا متكاملا تستحيل فيها الصدفة والعشوائية.. بل كل شيء يكاد يصرخ.. دبرنى مدبر.. وخلقنى مبدع قدير.

وقرأت القرآن فكان له فى سمعى رنين وإيقاع ليس فى مألوف اللغة وكان له فى عقليّ انبهار.. فهو يأتى بالكلمة الأخيرة فى كل ما يتعرض له من أمور السياسة والأخلاق والتشريع والكون والحياة والنفس والمجتمع برغم تقادم العهد على نزوله أكثر



مـن ألف وأربعمائة سـنة.. وهـو يوافق كل ما يسـتجد من علوم رغـم أنه أتى على يد رجل بدوى أمـيَّ لا يقرأ ولا يكتب فى أزمنة متخلفـة بعيـدة عن نور الحضـارات.. وقرأت سـيرة هذا الرجل ومـا صنع.. فقلت.. بل هو نبى.. ولا يمكن أن يكون إلا نبى.. ولا يمكـن لهذا الكون البديـع إلا أن يكون صنع الله القدير الذى وصفه القرآن.. ووصف أفعاله.

قـال صاحبـى بعد أن أصغى باهتمام إلـى كل ما قلت.. وراح يتلمس الثغرة الأخيرة :

- فمـاذا يكون الحـال لو أخطأت حسـاباتك وانتهيت بعد عمر طويل إلى موت وتراب ليس بعده شيء؟

- لن أكون قد خسـرت شـيئًا فقد عشت حياتى كأعرض وأسعد وأحفل ما تكون الحياة.. ولكنكم أنتم سوف تخسرون كثيرًا لو أصابت حسـاباتى وصدقت توقعاتى.. وإنها لصادقة سوف تكون مفاجئة هائلة يا صاحبى.

ونظرت فى عمق عينيه وأنا أتكلم فرأيت لأول مرة بحيرة من الرعب تنداح فى كل عين ورأيت أجفانه تطرف وتختلج.

كانت لحظة عابرة من الرعب.. ما لبث أن استعاد بعدها توازنه.. ولكنهـا كانت لحظة كافية لأدرك أنـه بكل غروره وعناده ومكابرته واقف على جرف من الشك والخواء والفراغ وممسك بلا شيء.

قال لى بنبرة حاول أن يشحنها باليقين :



- سوف ترى أن التراب هو كل ما ينتظرك وينتظرنا .

- هل أنت متأكد .

وللمرة الثانية انداحت في عينيه تلك البحيرة من الرعب .

قال وهو يضغط على الحروف وكأنما يخشى أن تخونه نبراته :

- نعم . . .

قلت :

- كذبت . . فهذا أمر لا يمكن أن نتأكد منه أبدًا .

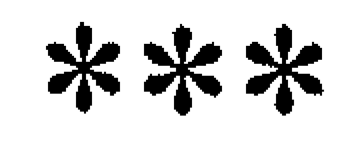
وحينما كنت أعود وحدى تلك الليلة بعد حوارنا الطويل كنت أعلم أنى قد نكأت فى نفسه جرحًا . . وحفرت تحت فلسفته المتهاوية حفرة سوف تتسع على الأيام ولن يستطيع منطقه المتهافت أن يردمها .

قلت في نفسي وأنا أدعو له . . لعل هذا الرعب ينجيه . . فمن سد على نفسه كل منافذ الحق بعناده لا يبقى له إلا الرعب منفذًا .

وكنت أعلم أنى لا أملك هدايته . . ألم يقل الله لنبيه . .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾
(القصص : ٥٦)

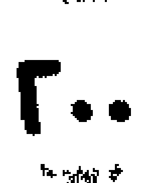
ولكنى كنت أتمنى له الهداية وأدعو له بها فليس أسوأ من الكفر ذنبًا ولا مصيرا .

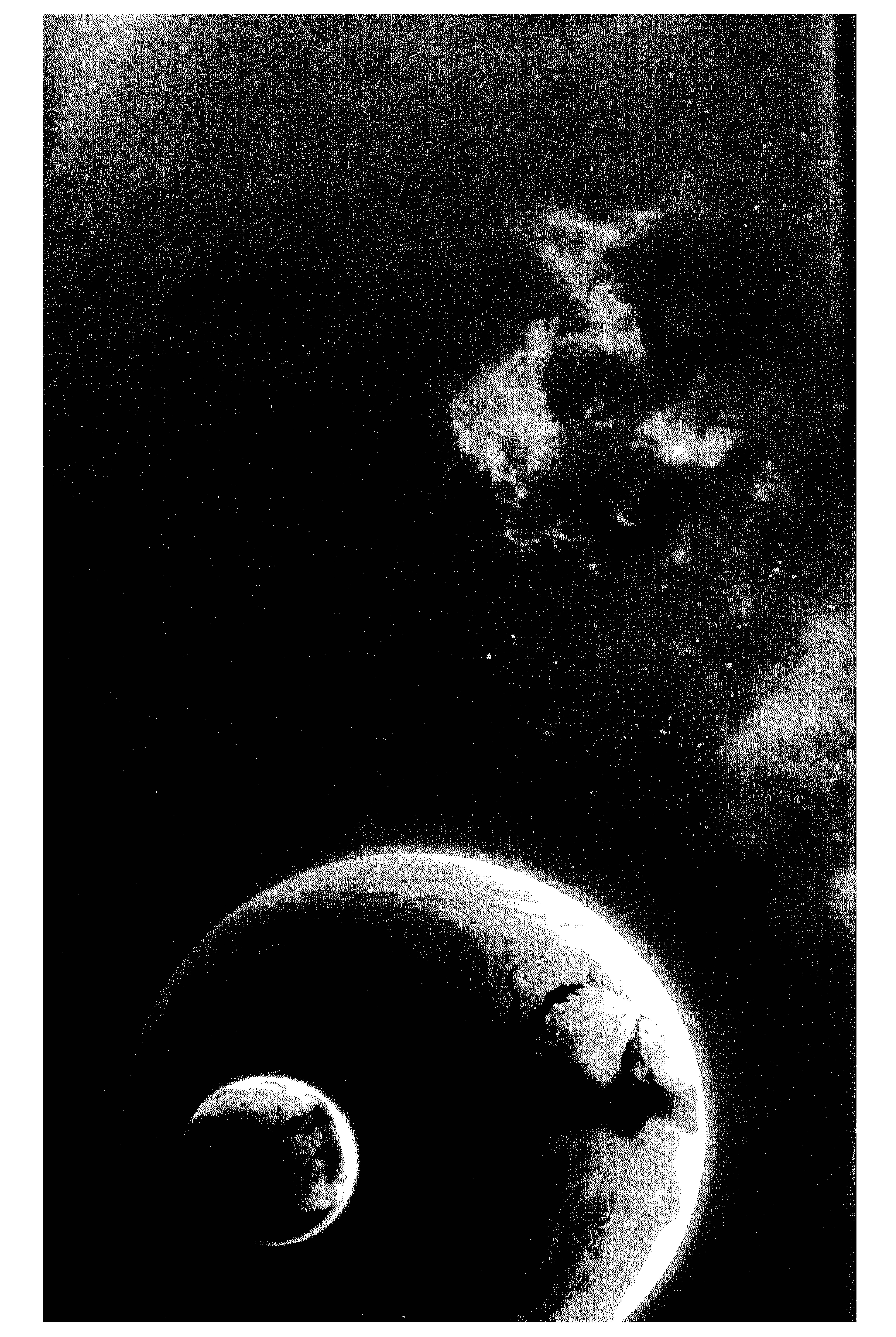




الفهـرس

الموضوع	الصفحة
● بطاقة حياة: دكتور مصطفى محمود	٣
● بين يدى هذا الكتاب.. بقلم: د. محمد عمارة	١٢
● مقدمة	٢٥
● لم يلد ولم يولد	٢٧
● إذا كان الله قدر عليّ أفعالى.. فلماذا يحاسبنى؟	٣٥
● لماذا خلق الله الشر؟	٤٧
● وما ذنب الذى لم يصله القرآن؟	٥٢
● الجنة والنار	٥٩
● هل الدين أفيون؟	٦٨
● وحكاية الإسلام مع المرأة	٨٥
● الروح	٩٥
● الضمير	١٠٨
● هل مناسك الحج وثنية؟	١١٣
● لماذا لا يكون القرآن من تأليف محمد؟	١١٧
● القرآن لا يمكن أن يكون مؤلفا	١٣٦
● شكوك	١٤٩
● موقف الدين من التطور	١٥٨
● كلمة لا إله إلا الله	١٧١
● كهيعص	١٧٦
● المعجزة	١٨٤
● معنى الدين	١٨٩
● فزنا بسعادة الدنيا وفزتم بالأوهام	١٩٤





هدية مجلة الأزهر

في شهر جمادى الأولى ١٤٣٦ هجرية

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر